كارسن ماكالرز

أنشودة المقهى الحزين

@ketab_n
Follow Me
16.5.2017

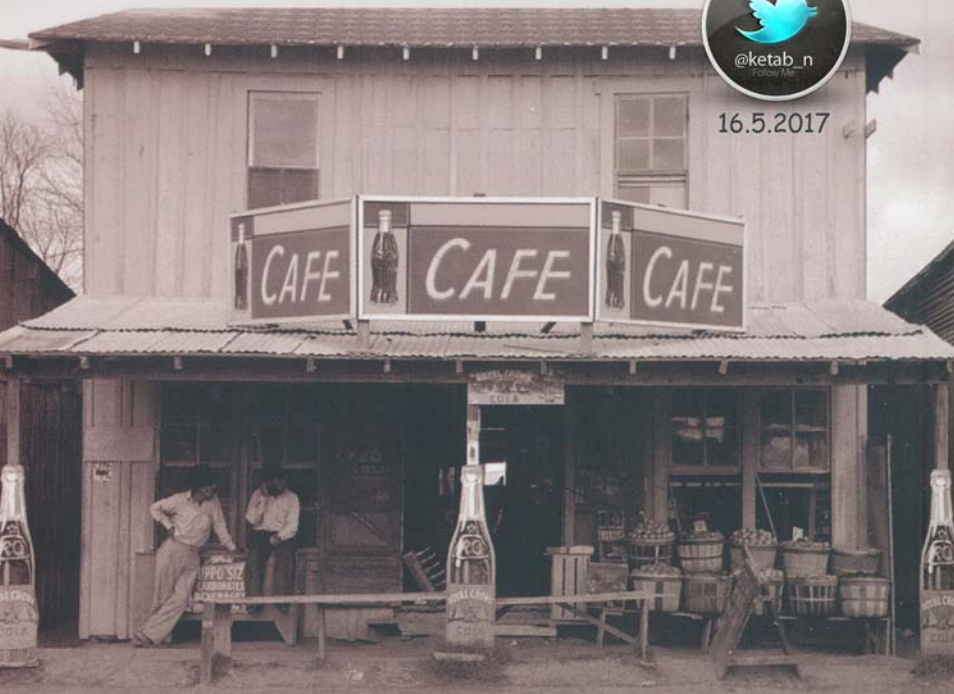

رواية

ترجمة: علي المجنوني

أشودة المقهى الحزين

Twitter: @ketab_n

كارسن ماكالرز

أنشودة المقهى الحزين

رواية

ترجمة: علي المجنوني

مسكيليانى للنشر

Twitter: @ketab_n

الكاتبة: كارسن ماكالرز
عنوان الكتاب: أنشودة المقهى الحزين
ترجمة: علي المجنوني
تدقيق: شوقي العنيزي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيمييل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 978-9938-833-66-9
الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

Twitter: @ketab_n

البلدة في حدّ ذاتها كئيبة، إذ ليس فيها كثيرٌ مما يُرى سوى مصنع القطن، والمنازلِ ثنائيةِ الغرف التي يقطن فيها العُمّال، وبضع أشجارِ درّاق، وكنيسةٍ بنافذتين مُبرقَشتين، وشارع رئيس بائس لا يتعدى طولُه مئة ياردة. في أيام السبت يأتي السكانُ من المَزارع المجاورة من أجل يوم للحديث والتبضع. ما عدا ذلك فإن البلدة معزولةٌ وحزينةٌ وتشبه مكانا قصيًّا مُغتربًا عن سائر الأماكن الأخرى في العالم. أقربُ محطةِ قطارٍ هي محطة مدينة المجتمع، أما خطوط باصات «السلوقي» و«الباص الأبيض» فتسلك طريق شلالات فوركس الذي يبعد مسافةَ ثلاثة أميال. الشتاءات هنا قصيرةٌ وشديدةُ البرودة، والصيفُ أبيضُ متوهجٌ حارق.

إذا مشيتَ على امتداد الشارع الرئيس في ظهيرة يوم من أيام أغسطس، فلن تجد أيّ شيء تقوم به. أكبر المباني، في قلب البلدة، تغطيه الألواح الخشبية بالكامل وهو مائلٌ نحو اليمين إلى درجة يبدو معها أنه في طريقه إلى الانهيار في أية لحظة. المنزل عتيقٌ جدًا. له منظرٌ مُلتوٍ وغريبٌ، منظرٌ يُحيّرُك إلى أن تدرك فجأة أن الشقَّ الأيمن من شُرفتهِ الأمامية قد صُبغ مرةً، قبل وقت طويل، إضافة إلى جزء من الحائط—لكن الصّباغ تُرك منقوصًا فأمسى قِسمٌ من البيت مُعتمًا وأكثرَ دكنةً من بقيّة الأقسام. يبدو المبنى مهجورا تماما. مع ذلك ثمة نافذةٌ وحيدةٌ في الطابق الثاني لم تُغطّ بالألواح. أحيانا، حين تكون الحرارة في أسوأ درجاتها بعد الزوال، تفتح يدٌ تدريجيا مصراعَ

Twitter: @ketab_n

النافذة، ويطلّ وجهٌ إلى الأسفل حيث البلدة. إنه وجهٌ يشبه تلك الوجوه البشعة المُظلمة التي تُرى في الأحلام—وجهٌ أبيض وبلا جنس، بعينين رماديتين حولاوين موجَّهتين إلى الداخل بحدّة كبيرة وكأنهما تتبادلان تحديقةً سريةً طويلةً ملؤُها الغمّ. يلبث الوجه متربّثا على النافذة مُدة ساعةٍ أو ما يقاربها، ثم يُوصَد المصراعُ من جديد، وعلى الأرجح لن تكون هناك نفسٌ أخرى يمكن رؤيتها على امتداد الشارع الرئيس. في عشايا أغسطس هذه، حين تنتهي مناوبتُك لا تجد ما يمكن فعله إطلاقا، لذلك لا ضَيْرَ أن تسير إلى طريق شلالات فوركس وتستمع إلى العصابة المُصفَّدة[1].

على أية حال كان في وقت سالف هنا في هذه البلدة تحديدا مقهى. وكان لا يشبه هذا المنزلَ القديمَ المصفَّحَ أيّ مكان آخر في نطاق عدة أميال. كانت هناك طاولاتٌ بسُفَر ومحارمَ ورقية وشرائطَ ملونة تطيّرها مراوح كهربائية، وتجمعاتٌ عظيمة في ليالي السبت. كانت ربّةُ المكان الآنسة أميليا إيڤانز. لكن الشخصَ الأكثرَ مسؤوليةً عن نجاح المكان وبهجته كان أحدبَ يُدعى ابن الخالة لايمن. نصيبٌ من قصة هذا المقهى كان لشخص آخر هو طليقُ الآنسة أميليا، شخص فظيع عاد إلى البلدة بعد فترة طويلة قضاها في السجن، وجلب معه الدمار، ثم مضى في طريقه من جديد. أُغلق المقهى منذ ذلك الحين، غير أن أهل البلدة ما انفكّوا يتذكرونه.

---

(1) في النصف الأول من القرن العشرين كانت الإصلاحيات والسجون في الجنوب الأمريكي تعمد إلى إرسال مجموعة من المساجين المقيدين بالأغلال، تسمى «العصابة المصفّدة»، للقيام بأعمال شاقة ومهينة خارج السجن. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لم يكن المكانُ في البدء مقهى. ورثت الآنسة أميليا المبنى عن أبيها، وكان متجرا يُباع فيه غالبا العلفُ وذَرْقُ الطيور والسلعُ الغذائية الأساسية كالطحين والسعوط. كانت الآنسة أميليا مُوسرة، فبالإضافة إلى المتجر، تُدير مقْطرةً على بعد ثلاثة أميال في السَّبَخة وتبيع أفضلَ خمرٍ في المقاطعة. كانت امرأةً داكنةً وطويلةً بعظام وعضلات أشبه بالرِّجال. شعرُها مقصوصٌ ومُسرَّحٌ إلى الخلف من عند الجبهة، ووجهُها الذي لوّحته الشمسُ مسكونٌ بالتشنّج والشحوب. كان يمكن أن تكون امرأة حسناء لو لم تكن، حتى آنذاك، حولاءَ قليلا. هنالك مَن غازَلها، لكن الآنسة أميليا منكفئةٌ على نفسها ولا تُعير اهتماما لحبّ الرجال. أما زواجُها فلم يشبه أي زواج آخر عُقد من قبلُ في هذه المقاطعة—كان زواجا غريبا ومحفوفا بالخطر، إذ لم يدمْ سوى عشرةِ أيام فقط، وترك البلدةَ بأسرها في حيرةٍ ودهشة. ما خلا هذه الزيجة الغريبة عاشت الآنسة أميليا حياتَها وحيدة. وغالبا ما كانت تقضي الليالي الطوال في كوخها الخلفي في السَّبَخة، مرتدية لباسَ العمل: قميصا، وبنطالا شيّالا، وحذاءً مطاطيًّا، وهي تحرس في صمتٍ نارَ المقطرة الخفيفة.

بفضل كل الأشياء التي يمكن أن تقوم بها اليدان، ازدهرت حياةُ الآنسة أميليا. باعت النقانق والسجق في البلدة المجاورة. وفي أيام الخريف الرائقة كانت تطحن الذرة، وكان المحلولُ الذي تغرفه من أحواضها ذهبيًّا داكنا وذا نكهةٍ شهية. شيّدت من الطوبِ مرحاضًا

Twitter: @ketab_n

خلف متجرها في غضون أسبوعين فقط وكانت ماهرةً في النجارة. كانت الآنسة أميليا تجد راحتها في كل شيءٍ إلاّ مع الناس. فلا يمكن أن يؤخذ الناس باليدين ويتحولوا بين عشية وضحاها إلى شيء أجدر بالاهتمام وأكثر نفعا ما لم يكونوا مُكرَهين أو مرضى. لهذا فإن الاستخدام الأوحد الذي تحفظه الآنسة أميليا للآخرين هو الحصول على نقودٍ من جرّاء التعامل معهم. وفي هذا الأمر حققت نجاحا. رهوناتٌ على المحاصيل والممتلكات، مصنعُ خشب، نقودٌ في البنك—كانت أغنى امرأة في نطاق أميال. وكانت ستكون بغنى عضوٍ في الكونغرس لولا عيبُها الكبير الذي لم يكن سوى ولعِها بالدعاوي القضائية والمحاكم. فهي تُشغل نفسها بدعاوٍ طويلة وعنيفة حول أمورٍ في غاية التفاهة، حتّى قيل إنّ الآنسة أميليا لو عَثَرت بسبب حجرٍ على الطريق لأطالت التحديقَ فيه غريزيا كما لو أنها تبحث عن شيءٍ لمقاضاته. وفيما عدا الدعاوي القضائية، عاشت حياة مستقرة كلَّ يوم فيها يشبه كثيرا أخاه الذي انصرم قبله. وباستثناء زواجِها الذي استمر عشرة أيام، لم يحدث شيءٌ يغيّر هذه الرتابة حتى ربيعِ السنةِ التي بلغت فيها الآنسة أميليا من العمر ثلاثين عاما.

حدث ذلك في ليلة ناعمة وهادئة في إبريل وقد قاربت الساعة منتصف الليل. كانت السماءُ بلون زهرةِ سوسنٍ زرقاءَ في المستنقع، والقمرُ صافيًا ومشعًّا. وكانت المحاصيل في ذلك الربيع تبشّر بخير كبير إلى درجة أن مصنع القطن أضاف في الأسابيع الماضية مناوبةً ليلية. وفي أسفل الجدول كان مصنعُ الطوب المربع أصفرَ بسبب الضوء، والهمهمة الخافتة والمنتظمة لعجلة المِغْزَل تتناهى إلى الأسماع. كانت ليلةً يطيب فيها، من بعيد وعبر الحقول المعتمة، سماعُ الأغنية الوئيدة لزنجيٍّ في طريقه إلى مُعاشرة خليلته. أو يزينُ فيها الجلوسُ بهدوء

Twitter: @ketab_n

والتقاط قيثارة، أو يكتفي فيها المرء على الأقلّ بالاستراحة وحيدا من دون التفكير في شيء على الإطلاق. كان الشارعُ في ذلك المساء مهجورا، لكن متجرَ الآنسة أميليا كان مُضاءً وفي الشرفة في الخارج كان هناك خمسة أشخاص. أحد أولئك الأشخاص هو ماكفيل البدين، مراقبُ عُمّالٍ بوجه محمرٍّ ويدين أرجوانيتين رقيقتين. وعلى الدرجة العليا هناك صبيّان بملابس العمل، وهما التوأمان ريني—كلاهما ضامرٌ ومتوانٍ، بشعرٍ أبيضَ وعينين خضراوين بليدتين. أمّا الرجل الآخر الجالس على حافة الدرجة السفلى فهو هنري ميسي، شخص خجول وجبان بأخلاق مهذبة وعادات عصبية. وكانت الآنسة أميليا نفسها تقف متكئةً على حَرفِ الباب الموارب، قدماها متقاطعتان في حذائهما المطاطي الضخم، وهي تفكّ بأناةٍ عُقدا في حبلٍ عثرت عليه. ومرّ وقت طويل دون أن يتكلّموا.

أرسل أحد التوأمين بصره على امتداد الطريق الخالي، فكان أول من خرق الصمت: «أرى شيئا قادما.»

قال أخوه: «عجلٌ هارب.»

كان الزولُ المُقبلُ لا يزال بعيدا جدا بحيث لا يمكن أن يُرى بوضوح. ألقى القمر ظلالا خافتة وملتوية لأشجار الدراق المُزهرة على جانب الطريق. وامتزجت في الهواء رائحةُ الأزهار والعشب الربيعي العذب مع الرائحة الدافئة الرطبة للبحيرة القريبة.

قال ماكفيل البدين: «كلاّ. إنه ابن أحدهم.»

راقبت الآنسة أميليا المشهد في صمت. أرخت حبلها ومسّدت حزامي بنطالها الشيّال بأصابع يدها البنية ناتئة العظام. تجهمتْ وسقطت خصلةٌ داكنةٌ من الشعر على جبهتها. وبينما كانوا ينتظرون هناك، انطلق كلبٌ من أحد المنازل الواقعة على الطريق في نباحٍ غليظٍ

Twitter: @ketab_n

ومسعورٍ استمر حتى أسكتَه صوتٌ ناداه. لم يتبيّنوا بوضوح الشيءَ القادمَ إلا بعد أن اقترب الزولُ كثيرا وأصبح في مجال الضوءِ الأصفر المنبعث من الشرفة.

كان القادمُ رجلا غريبا، ومن النادر أن يدخل غريبٌ البلدةَ مشيا على الأقدام في تلك الحَزّة. زِدْ على ذلك أن الرجل كان أحدبَ لا يكاد طوله يتعدى أربعة أقدام، وكان يرتدي معطفا مهترئا مُغبرا يتوقف عند ركبتيه. ساقاه الصغيرتان المعقوفتان بَدَتا أوهنَ من أن تحملا ثِقلَ صدرِه الضخم المشوّه والسنام المستقر على كتفيه. كان ذا رأسٍ ضخم وعينين زرقاوين غائرتين وفم صغير ودقيق. وكان وجهه طريًّا بقدر ما كان وقحا—وقد زاد الغبار في تلك اللحظة من صُفرة بشرتَه الشاحبة واحتشدت تحت عينيه ظلالٌ أرجوانية. كان يحمل حقيبةَ سفرٍ باليةٍ غير متوازنة ومربوطةٍ بحبل.

قال الأحدب وهو يلهث: «مساء الخير.»

لم تُردّ الآنسة أميليا والرجال الجالسون في الشرفة تحيّته ولم يتحدثوا. اكتفوا بالنظر إليه.

«أنا أبحث عن الآنسة أميليا إيڤانز.»

دفعت الآنسة أميليا شعرَها من جبهتها إلى الخلف ورفعت ذقنها.

«كيف ذلك؟»

قال الأحدب: «تجمعني بها صِلةُ قرابة.»

رفع التوأمان وماكفيل البدين أبصارهم إلى الآنسة أميليا.

قالت: «هأنَذا. ماذا تعني بصِلة قرابة؟»

شرع الأحدب: «لأن—» بدا مرتبكا، كما لو أنه على وشك البكاء تقريبا. أراح حقيبةَ السفر على الدرجة السفلى، إلا أنه لم يُزِحْ يده عن

Twitter: @ketab_n

عُروتها. «أمي تُدعى فاني جيسوب، وهي من تشيساو. غادرتْ تشيساو منذ بضعةٍ وثلاثين عاما حينما تزوجت من زوجها الأول. أتذكر أني سمعتها تقول إن لديها أختا غيرَ شقيقةٍ تُدعى مارثا. واليوم في تشيساو أخبروني أن مارثا إنما كانت أمّك.»

أصغت الآنسة أميليا وهي تُميل رأسها إلى الجنب قليلا. كانت تتناول أعْشِيةَ الآحادِ بمفردها، إذ لم يزدحم قطُّ بيتُها بحشد من الأقارب، ولا هي ادّعت قرابتها لأحد. كانت لأمها عمّةٌ تملك إسطبلَ تأجيرِ الخيول في تشيساو، لكن تلك العمة الآن ميتة. ما عدا ذلك لم يكن لها سوى ابنِ عمّ هو ابنُ خالة في الآن نفسه، عاش في مدينة تبعد عشرين ميلا، لكن ذاك الرجلَ والآنسة أميليا لم يتآلفا مُطلقًا، وعندما يصادف أن يمرّ أحدهما حذو الآخر كانا يبصقان على جانب الطريق. حاول آخرون جاهدين، من وقت لآخر، أن يوجِدوا صلة بعيدة بالآنسة أميليا ولكن مساعيهم لم تنجح إطلاقا.

انخرط الأحدب في مُحاضرةٍ طويلة، مُعدّدا أسماء وأماكنَ يجهلها المستمعون على الشرفة وبدا أنّ ليس لها أيةُ علاقةٍ بالموضوع. «هكذا إذن كانت فاني جيسوب ومارثا جيسوب أختين غيرَ شقيقتين. وأنا ابنُ فاني من زوجها الثالث. وبناءً عليه يجعل ذلك مني وإياك—» انحنى وبدأ في فكّ الحبل الذي يوثق حقيبته، بيدين متسختين مثل مخالبِ دُوريّ. كانتا ترتعشان، وكانت الحقيبة ملأى بكل أنواع الخردة— أردانٍ رثّة ونفاياتٍ غريبة بدت مثل قطعٍ منزوعةٍ من ماكينة خياطة أو شيءٍ بالتفاهة نفسها. فتّش الأحدب بينَ قِطَعِ متاعه هذه وأظهر صورة فوتوغرافية قديمة. «هذه صورةٌ لأمي وأختها غير الشقيقة.»

لم تنطق الآنسة أميليا. ظلت تحرك فكّها ببطءٍ من جانب إلى جانب، ويمكنك أن تستشفّ من وجهها ما كانت تفكر فيه. أخذ ماكفيل

Twitter: @ketab_n

البدينُ الصورةَ وأمسك بها مادًا إياها في اتجاه الضوء. كانت صورةً لطفلتين شاحبتين ذاويتين في السنة الثانية أو الثالثة من عمرهما تقريبا. وكان الوجهان عبارةً عن لطختين بيضاوين صغيرتين، صغيرتين، بحيث يمكن أن تكون صورةً عتيقةً في أيّ ألبوم لأحدهم.

أعادها ماكفيلُ البدينُ إلى الأحدب من جديد دون تعليق، ثم سأل:

«من أين أتيت؟»

جاء صوتُ الأحدب مترددا: «كنتُ مسافرا.»

لم تنطق الآنسة أميليا بكلمة بعد. استمرت واقفة تتكئ على حرف الباب فحسب، وتنظر إلى الأحدب في الأسفل. غمز هنري ميسي بعصبية وفرك يديه معا، ثم غادر بهدوء الدرجةَ السفلى واختفى. إنه إنسانٌ طيب، وقد لامستْ حالةُ الأحدبِ قلبَه، ولذا لم يشأ أن ينتظر ليشاهد الآنسة أميليا تطرد هذا الوافد من حماها وتنبذه حتى يخرج من البلدة. وقف الأحدب على الدرجة السفلى وحقيبته مفتوحة. انتشق الهواء وارتعش فمه. لعله بدأ يشعر بورطته القابضة للصدر. ربما أدرك كم هو بائسٌ أن يكون غريبا في البلدة بحقيبة مليئة بالخردة، ويدّعي قرابته إلى الآنسة أميليا. على أية حال جلس على الدرج وانخرط فجأةً في البكاء.

لم يكن أمرًا مألوفا أن يدخل أحدب المتجرَ في منتصف الليل ثم يجلس ويبكي. فَرَكت الآنسة أميليا شعرها إلى الخلف مُزيحةً إياه عن جبهتها، أمّا الرجال فتبادلوا النظراتِ بينهم في ارتياب، بينما غرق كل ما يحيط بالبلدة في صمت تام.

أخيرا قال أحد التوأمين: «عليّ اللعنة إن لم يكن مجرد موريس فاينستاين آخر.»

أومأ الجميع موافقين، فذلك تعبيرٌ يحمل معنى معيّنا وخاصا. لكن

Twitter: @ketab_n

الأحدب بكى بصوتٍ أعلى لأنه لم يكن في وسعه أن يعرف ما كانوا يتحدثون عنه. موريس فاينستاين رجلٌ عاش في البلدة قبل سنوات. لم يكن سوى غلام يهودي نشيط ومراوغ كان يبكي حالما يُقال له إنك قاتلُ المسيح، وكان يداوم على أكل الخبز الأبيض والسلمون المعلّب يوميا. حلّت به مصيبةٌ فرحل بعيدا إلى مدينة المجتمع. ومنذ ذلك الحين كلما اتصف رجل بشدة الحساسية بشكل أو بآخر، أو بكى، نُعِتَ بأنه موريس فاينستاين.

قال ماكفيل البدين: «حسنا، إنه مُبتلى، ولذلك سبب.»

ذرعت الآنسة أميليا الشرفةَ بخطوتين واسعتين متأنيتين. نزلت عبر الدرج ووقفت تنظر بتمعنٍ إلى الغريب. بحذرٍ مبالغ فيه لمستْ بإصبعٍ طويلٍ بنيّ السنامَ في ظهره. لم يكن الأحدبُ قدْ توقف عن البكاء، غير أن بكاءه أصبح أكثر هدوءا الآن. كان الليل صامتا والقمر ما زال مشرقا بضوء ناعم وشفيف. أمسى الجو أكثر برودة. بعد ذلك قامت الآنسة أميليا بشيء نادر؛ إذ سلّت من جيبِ وركِها قنينةً وبعد أن جَلَت براحة كفّها عنقَ القنينة مدّتها إلى الأحدب لكي يشرب. كان من النادر أن تقتنع الآنسة أميليا بأن تبيع مشروبها دَيْنا، ولم يُعهد عنها أنها قد أعطت مقدار قطرة من الشراب مجانا.

قالت: «اشرب. سينعش أحشاءك.»

توقف الأحدب عن البكاء، ولحس الدموعَ من حول فمه بعناية، ثم شرب كما طُلب منه. ولمّا انتهى أخذت الآنسة أميليا جرعةً متمهلةً دفأت بها فمها وغسلته، ثم بصقتْها. بعد ذلك شربت هي أيضا. وكان مع التوأمين والمراقب قارورتُهم التي دفعوا ثمنها.

قال ماكفيل البدين: «إنه شرابٌ عذب، آنسة أميليا، لا تخفقين أبدا في إعداده بإتقان.»

Twitter: @ketab_n

الويسكي الذي شربوا منه في ذلك المساء—قارورتين كاملتين منه—بالغ الأهمية، وإلا سيكون من الصعب تفسير ما أعقَبَه. ربما من دونه ما كان ليكون هنالك مقهى. لشراب الآنسة أميليا ميزة فريدة. إنه صافٍ ولاذعٌ على اللسان، لكنه ما إن ينزل إلى جوف الرجل حتّى يتوهّج داخله وقتا طويلا. وليس هذا كل شيء. فمن المعروف أنك إنْ كتبتَ رسالةً بعصير الليمون على ورقة نظيفة فلن يكون هناك ما يدلّ على وجود الرسالة. لكن لو أمسكتَ بالورقة لحظةً فوق النار فستستحيل الأحرف بُنيّة وينجلي المعنى. تخيّل أن الويسكي هو النار وأن الرسالة ما هو معروفٌ فقط في روح إنسان—حينها يمكن إدراك قيمة شراب الآنسة أميليا. الأشياء التي مرت من دون أن تُلاحَظ، الأفكار التي دُسّت في أقصى العقل الشرير، فجأة يُعترف بها وتغدو مستوعَبة. الحائك الذي ظل تفكيره محصورا في المِغزل وفي سَطْل العَشاء وفي السرير ثم في المِغزل من جديد—هذا الحائك قد يتناول بعض الشراب في يوم أحدٍ ثم يمرّ بزهرةِ زنبقٍ في المستنقع. ثم قد يُمسك بهذه الزهرة في راحة يده، متفحصا التُّوَيْج الذهبي الأنيق، ثم قد تبثّ فيه فجأةً عذوبةً لاذعةً كما الألم. قد يرفع ناسجٌ بصره إلى الأعلى بغتةً فيرى للمرة الأولى البهاءَ البارد الغريب لسماء يناير في منتصف الليل، فيُوقِف قلبَه رعبٌ عميقٌ من تفاهته. أشياء على هذه الشاكلة، إذن، تحدث عندما ينهل رجلٌ من شرابِ الآنسة أميليا. قد يعاني، أو قد تستنزفه البهجةُ—لكن التجربة أظهرت الحقيقة؛ لقد أدفأ الأحدب روحَه ورأى الرسالة المخبوءة هناك.

Twitter: @ketab_n

شربوا حتى تجاوز الوقت منتصف الليل، وغشيت القمرَ سحبٌ جعلت الليل باردًا مُظلمًا. لم يبرح الأحدبُ مكانه جالسا على الدرجة السفلى، منحنيا ببؤسٍ وجبهتُه فوق ركبته. وقفت الآنسة أميليا ويداها في جيبيها، واضعة إحدى قدميها على الدرجة الثانية من السلّم. لبثت صامتةً وقتا طويلا. كان على وجهها تعبيرٌ يُرى غالبا على الأشخاص الحُولِ قليلا حينما يفكرون بعمق، نظرةٌ تبدو حكيمةً جدا بقدر ما هي مجنونة. وأخيرا قالت: «لا أعرف ما اسمك.»

قال الأحدب: «أنا لايمن ويليس.»

قالت: «حسنا، تفضل بالدخول. هناك بقيةٌ من العشاء في الموقد ويمكنك تناولها.»

ما دَعَت الآنسة أميليا في حياتها شخصًا إلى طعام إلاّ مرات قليلة فقط، في حال نَوَت المكرَ به بطريقة ما أو استخراجَ نقودٍ منه. لذلك شعر الرجال في الشرفة أنّ ثمة شيئا مريبا. لاحقا قالوا لأنفسهم لا بُدّ وأنها ظلّت شطرا كبيرا من النهار تعاقر الخمرَ في المستنقع. على أية حال غادرت الشرفة، وانصرف ماكفيل البدين والتوأمان إلى منازلهم. أغلقت مزلاجَ البابِ الأمامي وأجالت نظرَها في المكان كيما تتأكد من أنّ كلَّ شيء في مكانه الصحيح. ثم ذهبت إلى المطبخ الذي كان في أقصى المتجر. وتبعها الأحدبُ، ساحبا حقيبته، متنشقا وماسحا أنفه في كُمّ معطفِه القذر.

قالت الآنسة أميليا: «اجلس، وسأقوم بتسخين ما أجده هنا.»

Twitter: @ketab_n

كانت وجبةً سائغةً تلك التي تناولاها معا في تلك الليلة. فالآنسة أميليا مُوسرة ولا تبخل على نفسها بالطعام. هناك دجاجٌ مقلي (استأثر الأحدبُ لنفسه بقطعة الصدر منه)، ولفتٌ أصفر مهروس، وكرنب، وبطاطا حلوة مهروسة حارة وذهبية. أكلت الآنسة أميليا ببطء مُزارِع، مُستمتعةً بكلّ لقمة. جلست واضعةً كلا مرفقيها على الطاولة، وانكبّت على الصحن، وانفرجت ركبتاها كثيرا، ودعمت قدميها على قضيب الكرسي الأفقي. أمّا الأحدبُ، فقد ازدردَ عشاءَه كما لو أنه لم يشمّ طعاما منذ شهور. وفي أثناء العشاء زحفتْ دمعةٌ على خده الداكن—لكنها لم تكن سوى من آثار بكائه الأول ولذا لم تعنِ شيئا على الإطلاق. كان المصباح على الطاولة مضبوطَ الشعلة، يحترق زرقةً عند أطراف الفتيل، وقد ألقى ضوءًا جَذِلا في المطبخ. لمّا انتهت الآنسة أميليا من تناول عشائها مسحت صحنها بعنايةٍ مستخدمةً كِسرةَ خبزٍ أبيض ثم صبّت شيرتها الشفيفة الحلوة فوق الخبز. فعل الأحدبُ مثلها—ولكنّه لم يتمالك نفسَهُ فطلب صحنا جديدا. وحين فرغت الآنسة أميليا من كلّ شيء أمالت كرسيّها إلى الوراء، وجمعت قبضتها، ثم تحسست عضلاتِ ذراعها اليمنى الصلبةَ والمطواعةَ من تحت القماش الأزرق اللامع لكمّي قميصها، وهي عادةٌ تلقائيةٌ تقوم بها لدى الانتهاء من كل وجبة. بعد ذلك التقطت المصباحَ من فوق الطاولة وهزت رأسها في صوب السلم داعيةً الأحدبَ إلى اتّباعها.

فوق المتجر كانت هناك ثلاثُ غُرف عاشت فيها الآنسة أميليا كل حياتها—غرفتا نوم وردهةٌ فسيحة تتوسطهما. لم يرَ هذه الغرف سوى أناس قليلين، لكن الذائع عنها عموما أنها جيّدةُ التأثيث ومتقنةُ النظافة. والآن تصطحب الآنسة أميليا معها غريبا قصيرا قذرا ومحدودب الظهر قَدِم من حيث لا يعلم إلا الله. مشت الآنسة أميليا

Twitter: @ketab_n

بتؤدة، تأخذ خطوتين في كل مرة، وتُمسك المصباحَ عاليا. تهادى خلفها الأحدب، قريبا جدا منها إلى درجة أن الضوء المتأرجح ألقى على جدار السلّم ظلا واحدا ضخما وملتويا لكليهما. وسرعان ما أظلمَ المبنى الذي فوق المتجر شأنه شأن سائر البلدة.

* * *

صباحُ اليوم التالي كان هادئا، بشروقٍ دافئ أرجواني مشوب بلون زهري. في الحقول المحيطة بالبلدة كانت الثلومُ حديثةَ الحرث، فبَكَرَ السكان إلى العمل يغرسون شتلاتِ التبغ النضيرةَ داكنةَ الخُضرة. فوقهم حلّقت الغربان البرية على مقربةٍ من الحقول، تاركةً على الأرض ظلالا زرقاءَ خاطفة. في البلدة خرج الناس مبكرين بسطول عشائهم، وكانت نوافذُ مصنع القطنِ ذَهَبا مُعْمِيا في الشمس. والهواءُ طازجا وأشجار الدراق بأزهارها المتفتحة خفيفةً مثل غيوم مارس.

نزلت الآنسة أميليا عند الفجر تقريبا، كالمعتاد. غسلت رأسَها من ماء المضخّة وبعد ذلك بقليل شَرَعت في شُغلها. في وقت لاحق في الصباح سرّجت بغلَها وذهبت لتتفقد أحوالَ أملاكِها، المزروعة قطنا، قريبا من طريق شلالات فوركس. عند الظهيرة، بطبيعة الحال، كان الجميع قد سمعوا بالأحدب الذي جاء إلى المتجر في منتصف الليل. ولكن لم يرَه أحدٌ بعد. ازدادت حرارةُ النهار سريعا وبدت السماءُ زرقةَ أكثرَ زرقةً في الظهيرة. مع ذلك لم يبصر أحدٌ بعينه هذا الوافد الغريب. كان قليلٌ من الناس يتذكرون أن لوالدة الآنسة أميليا أختا غير شقيقة—بَيْد أن هناك تضاربا في الآراء حول ما إذا كانت الأخت قد ماتت أو هربت مع مُراسلِ تبغ. أما بالنسبة إلى ادّعاء الأحدب فقد اعتقد الجميعُ أنه روايةٌ مُلفَّقة. لهذا اقتنعت البلدة يقينًا، لمعرفتها بطبعِ الآنسة أميليا، بأنها طردته من المنزل بعد أن أطعمته. لكن مع

Twitter: @ketab_n

دنوّ المساء، لَمّا ابيضّت السماء وانتهت المناوبة، زعمت امرأةٌ أنها رأت وجها معقوفا يطلّ من نافذةٍ إحدى الغرف التي تعلو المتجر. أمّا الآنسة أميليا نفسها فلم تقل شيئا. عملت في المتجر لبعض الوقت، وتجادلت لمدة ساعة مع مُزارعٍ حول عمودِ محراث، وصنعت شرَكَ طيور، وأقفلت المتجر قبل الغروب بقليل، ثم ذهبت إلى غرفِها مُخلّفةً البلدة كلّها تُثرثر في حيرة.

في اليوم التالي لم تفتح الآنسة أميليا المتجر، بل بقيت حبيسةَ دارِها ولم تستقبل أحدا. هذا إذن هو اليوم الذي بدأت فيه الشائعة— شائعة بشعة جدا إلى درجة أنها أذهلت البلدةَ والمقاطعةَ قاطبةً. بدأ الشائعةَ ناسجٌ يدعى ميرلي راين. رجلٌ ليس له رصيدٌ من الشهرة، شاحبٌ ومتثاقلٌ ولا يملك في جمجمته سِنّا واحدة. كان مصابا بمرض الملاريا الثلاثية، ما يعني أن الحُمّى تعاوده كل ثالث يوم. وهكذا يكون في يومين فاترا ونزقا، ولكنه في اليوم الثالث ينشط وتأتيه أحيانا فكرة أو فكرتان، معظمها سخيف. وقد كان ميرلي راين في حُمّاه عندما التفت فجأة وقال:

«أعرف ماذا فعلت الآنسة أميليا. قتلت الرجلَ من أجل شيء مّا في تلك الحقيبة.»

قال هذا بصوت رزين، صوتِ مَن يعبّر عن حقيقة. وفي غضون ساعة واحدة ذاعَ الخبرُ في البلدة. كانت حكايةً وحشيةً وسقيمةً تلك التي نسجتها البلدة في ذلك اليوم. فيها كل الأشياء التي يقشعرّ لها البدن—أحدب، دفنٌ في المستنقع في منتصف الليل، سحبُ الآنسة أميليا عبر شوارع البلدة وإلى السجن، هرجٌ ومرجٌ حول ما سيحصل لأملاكها—كلها تُقال في أصوات خافتة وتُعاد بتفاصيلَ طازجة وغريبةٍ في كل مرة. أمطرت السماءُ ونسيت النساءُ أن يُحضرن

Twitter: @ketab_n

الملابس من حبال الغسيل. حتى إن شخصا أو شخصين، من أولئك الذين كانوا يدينون للآنسة أميليا، ارتديا ملابس الأحد كما لو أنه يومُ عيد. واحتشد الناس معا على الشارع الرئيس يتحدثون ويراقبون المتجر.

سيكون القولُ إن البلدة بأكملها اشتركت في هذا الاحتفال الشرير مجانبا للصواب. كان هناك بضعة رجال عقلاء برهنوا على أن الآنسة أميليا، بالنظر إلى غِناها، لن تخرج عن طورها وتقتل متشردا من أجل قليلٍ من الخردة التافهة. كان في البلدة ثلاثة أشخاص طيبين، لم يقبلوا بهذه الجريمة، ولا حتى من أجل المصلحة وما تستلزمه من هياج كبير. لم تُعطهم هذه الرواية أية متعة حينما تخيّلوا الآنسة أميليا تُمسك بقضبان السجن وتُردَى بالصعق الكهربائي في أتلانتا. هؤلاء الأشخاص الطيبون كوّنوا عن الآنسة أميليا رأيا بطريقة مختلفة عن تلك التي كوّن بها الآخرون آراءَهم. حين يكون شخصٌ ما على عكس ما كانت عليه الآنسة أميليا تماما في كل شيء، وعندما تبلغ خطايا شخص نقطةً يصعب معها تذكّر تلك الخطايا فجأة، فإن ذلك الشخص في حاجة إلى حُكم من نوع خاص. تذكّروا أنّ الآنسة أميليا وُلدت داكنة وبوجهٍ غريب عَلى نحو ما، وربّاها بعيدا عن أمها والدُها الذي كان رجلاً انطوائيا، وأنها في طفولتها المبكرة كبرت حتى بلغ طولها ست أقدام وإنشين، وهو أمر في حد ذاته ليس طبيعيا على امرأة، وأن عاداتِها وطريقةَ حياتها كانت غريبة إلى حَدٍّ يجعلها عصيّة على أيّ تفسير. والأهم من ذلك كله أنهم تذكروا زواجَها الغامض الذي كان أغرب الفضائح التي حدثت في هذه البلدة على الإطلاق.

إذن شعر هؤلاء الأشخاص الطيبون تجاهها بشيءٍ قريبٍ من الشفقة. وعندما كانت في الخارج تتدبر شؤونها الجامحة، كأن تقتحم

Twitter: @ketab_n

منزلا كي تسحب آلةَ خياطة مقابل دَيْنٍ متأخر، أو أن ترهق نفسها بسبب أمر متعلق بالقانون—كانوا يشعرون تجاهها بشعورٍ هو مزيجٌ من حنقٍ سخيف وصفير يدغدغ من الداخل وحزنٍ عميقٍ لا يُسمّى. لكن يكفي هذا عن الأشخاص الطيبين، لأنه لم يكن منهم سوى ثلاثة، بينما جعلت بقية البلدة من هذه الجريمة الخيالية احتفالا طيلة المساء.

بدت الآنسة أميليا نفسها، ولسبب غير مفهوم، غير واعية بكل هذا. قضت جُلّ يومها في الأعلى. وحين نزلت إلى المتجر، جاست المكان بهدوء، يداها مدسوستان في جيبي بنطالها الشيال ورأسها منحنٍ خفيضا إلى درجة أن ذقنها غدت محشورةً داخل ياقة قميصها. لم تكن عليها بقعُ دم في أي مكان. كانت تتوقف عن المشي في أكثر من مرة وتظل واقفة تَنْظر بتجهّم إلى الشقوق في الأرض، تلوي خصلةً من شعرها المقصوص، وتُحدّث نفسها همسًا. لكن معظمَ اليوم قضتْه في الأعلى.

حل الظلام. لطّف المطرُ الذي هطل ذلك النهار الهواءَ، فجاء المساء باردا وكئيبا كما في وقت الشتاء. لم تكن في السماء نجومٌ، وبدأ يهطل رذاذٌ مثلجٌ خفيف. خفقت المصابيحُ في البيوت خفقات حدادية مضطربة عندما تُشاهَد من الشارع. هبت رياحٌ، ليس من جهةِ السبخة ولكن من جهة الغابة الصنوبرية الباردة المعتمة شمال البلدة.

دقت الساعاتُ في البلدة أجراسَ الساعة الثامنة. لم يحدث شيءٌ بعد. أدخلت الليلةُ الكئيبةُ، بفعل حديث النهار البشع، الذعرَ إلى قلوب بعض الناس، فمكثوا في منازلهم إلى جوار النار. اجتمع آخرون في جماعات سويا. في شرفة متجر الآنسة أميليا اجتمع حوالي ثمانية رجال أو عشرة. كانوا مُطرقين لا يلوون على شيء ما خلا الانتظار.

Twitter: @ketab_n

هم أنفسهم لم يكونوا يعلمون ماذا كانوا ينتظرون، لكن الأمر كما يلي: في أوقات الشدة، حينما يكون هناك حدثٌ جللٌ على وشك الوقوع، يجتمع الرجال وينتظرون على هذا النحو. وبعد وقت تحين لحظةٌ يتصرفون فيها جميعا في انسجام، ليس بسبب التفكير أو بسبب إرادة أي واحد منهم، بل لأنّ غرائزهم اتّحدت بشكل يجعل القرار لا ينتمي لرجل واحد فقط، ولكن للمجموعة كلّها. وفي تلك اللحظة لا يتردد أيّ فرد. أمّا تحديدُ ما إذا كان الأمر سيُسوّى بسلام، أو سيَنتُج عنه نهبٌ وعنفٌ وجريمة، فإنّه يعتمد على القَدَر وحده. وهكذا انتظر الرجال في كامل وعيهم في شرفة متجر الآنسة أميليا، من دون أن يدرك أحدٌ منهم ما هم فاعلون، ولكنهم يعلمون في دواخلهم أنهم يتعيّن عليهم الانتظار، وأن الوقت على وشك أن يحين.

فُتح باب المتجر في هذه الأثناء. كان الداخل مشرقا وطبيعيَّ الهيئة. على يسار منضدة الحساب كانت شرائح لحم أبيض، وحلوى الصخور، وتبغ. وخلفها أرفف من اللحم الأبيض المملّح والطحين. الجانب الأيمن من المتجر كان في غالبه مملوءا بمستلزمات الزراعة وما شابهها. في أقصى المتجر، إلى اليسار، كان الباب المؤدي إلى السلّم مواربا. وفي أقصى يمين المتجر بابٌ آخر يقود إلى حُجيرة تسمّيها الآنسة أميليا مكتبَها. هذا الباب أيضا كان مواربا. في الساعة الثامنة من ذلك المساء شوهدت الآنسة أميليا هناك جالسة أمام طاولة مكتبها تُجري عمليات حسابية بقلم حبرٍ وبعضِ الأوراق.

كان المكتب مضاءً إضاءة بهيجة، ولم يبدُ أن الآنسة أميليا لاحظت الوفدَ في الشرفة. كان كل شيء حولها في مكانه الصحيح، مثلما جرت عليه العادة. كان المكتب حجرةً ذائعةَ الصيت عبر المقاطعة، بالمعنى المُريع للكلمة. هناك ظلّت الآنسة أميليا تُجري عملياتِ شغلها. على

Twitter: @ketab_n

طاولة المكتب آلةٌ كاتبةٌ مغطاةٌ بعناية كانت تعرف كيف تستخدمها ولكنها تستعين بها في أهم الوثائق فقط. في الأدراج آلافُ الأوراق، وُضعت في ملفات حسب الترتيب الأبجدي. هذا المكتب هو أيضا المكان الذي كانت الآنسة أميليا تستقبل فيه المرضى، لأنها كانت تستمتع بالتطبيب وقد عالجت كثيرًا من الناس في حياتها. رفّان كاملان كانا مزدحمَيْن بقَنَانٍ وأدوات متنوعة. استند إلى الحائط مقعدٌ يجلس عليه المرضى. كان في وُسعها أن تخيط جرحا بإبرة متّقدة بحيث لا يخضرّ الجرح. وبالنسبة إلى الحروق كان لديها محلولٌ مُلطفٌ وحلو. أمّا العلل التي لا يُعرف لها مصدرٌ فقد جهّزت لها عددًا كبيرًا من الأدوية المختلفة قامت بتخميرها بنفسها من وصفات مجهولة. كانت لديها أدويةٌ تنظّف الأمعاء بفعالية كبيرة، لكنها لم تكن تُعطَى للصغار، لأنّها تسبب تشنجات مؤذية، بل كانت تخصّص للأطفال جرعةً مستقلةً بالكلية، جرعةً ألطفَ ومحلاةَ النكهة. أجل، فعلى العموم كانت تعتبر طبيبة جيدة. وكانت يداها تتسّمان، على الرغم من أنهما ضخمتان وبارزتا العظام، بلمسة حانية. امتلكت خيالا عظيما واستخدمت مئات الأدوية المختلفة. وفي وجه أكثر العلاجات استثنائيةً وخطورةً لم تكن تتردد، ولم يكن يستعصي عليها مرضٌ إلا وتعهدته بالعلاج. في هذا الشأن كان ثمة استثناءٌ وحيد. إذا جاء مريضٌ بشكاوى النساء فلن يكون في وسعها القيام بأي شيء حيالها. والحق أنها بمجرد ذكر الكلمات فإن وجهها يعبس تدريجيا من العار وتقف هناك تمد رقبتها أبعدَ من ياقة قميصها أو تحك كلّ فردةٍ من حذائها المطاطي بالأخرى. لكن في بقيّة الأمور وثق فيها الناس. لم تفرض عليهم رسوما مهما كانت العلة وكانت دائما ما تستقبل جماعاتٍ من المرضى.

في هذا المساء كتبت الآنسة أميليا بقلم الحبر كثيرا. ولكن على

Twitter: @ketab_n

الرغم من ذلك لا يمكن لها أن تستمر إلى الأبد في غفلتها عن الوفد الذي ينتظر في الخارج داخل الشرفة المعتمة ويراقبها. أخذت تنظر إليهم من وقت إلى آخر وتلاحظهم بثبات. لكنها لم تَصرخ في وجوههم ولم تتساءل عن سبب تسكعهم حول منزلها مثل ثلةِ مهذارين مثيرين للشفقة. كان وجهها متغطرسا ومتجهما، كما كان دائما حين تجلس إلى طاولة مكتبها. وبعد مدّة بدا أن تلصُّصَهم على ذلك النحو ضايقها، فمسحت خدَّها بمحرمةٍ حمراء ونهضت، ثم أغلقت باب المكتب.

والآن بدت هذه الخطوة بالنسبة إلى الحشد في الشرفة مثل إشارة. ها قد حان الوقت. لقد وقفوا طويلا والليل في الشارع من خلفهم فظٌّ وكالح. لقد انتظروا مليّا وفي تلك اللحظة تحديدا تهيأت لهم غريزةُ أن يتصرفوا. فجأة، وكما لو أن رغبةً واحدةً تقودهم، دلفوا إلى المتجر. في تلك اللحظة بدا الرجال الثمانية متشابهين جدا—كلهم يرتدون ملابس العمل الزرقاء، معظمهم بشعر مبيضّ، كلهم بوجوه شاحبة، تبرق أعينهم بنظرات مصممة وحالمة. لا أحد يعلم ما الذي كانوا سيقومون به بعد ذلك. ولكنّهم سمعوا فجأةً صخبًا في بداية السلم. نظر الرجال إلى أعلى ثم تسمّروا في أماكنهم مشدوهين من الرعب. كان الأحدبَ الذي قتلوه في أذهانهم. ولم يكن المخلوق يشبه ما صُوّر لهم تماما—لم يكن شخصيةً ضئيلةً مثيرةً للشفقة أو قذرة، وحيدةً ومعدمةً في هذا العالم. في الواقع لم يشبه إطلاقا ما رآه أيُّ رجلٍ منهم من قبلُ حتى هذه اللحظة. كانت الغرفة ساكنةً سكونَ الموت.

هبط الأحدب ببطء وبفخر مَن امتلك كلّ لوح من ألواح الأرض التي تحمل قدميه. لقد تغيّر تغيُّرًا كبيرًا في الأيام الماضية. فمن ناحيةٍ كان نظيفًا بطريقة تعجز عنها الكلمات. ما زال يرتدي معطفه القصير لكنه كان ممسَّدا ومرتوقا بإتقان. تحته كان قميصٌ جديدٌ بمربعاتٍ

Twitter: @ketab_n

حمراء وسوداء حمراء وسوداء تعود ملكيته للآنسة أميليا. لم يلبس سروالا كما يُفترض بالرجال العاديين أن يفعلوا، بل ارتدى زوجا من بنطالٍ خيشيّ ضيقٍ وقصيرٍ يقف عند الركبة. على ساقيه النحيلتين لبس جوربا أسود، وكانت حذاؤه من نوع خاص، إذ كانت غريبة الشكل، مربوطة برباط فوق الكاحلين، منظفَة حديثا ومصقولة بالشمع. حول رقبته ارتدى، من أجل تغطية أذنيه الكبيرتين المصفرّتين، شالا من الصوف الأخضر الليموني تكاد أهدابه تلامس الأرض.

ذرع الأحدبُ أرضيةَ المتجر بمشيته المختالة الآلية القصيرة ثم وقف في وسط المجموعة التي كانت قد دخلت المتجر. فسحوا مكانا حوله ووقفوا متطلّعين تتدلى أيديهم على جُنوبهم وعيونهم مُبحلقة. أخذ الأحدب وضعه بطريقة غريبة. حدق في كل شخص بثبات في مستوى عينيه، وهو المستوى الذي يوازي خط الحزام لدى الرجل العادي. ثم بعد تروٍّ فطنٍ فحصَ بنظره المنطقةَ السفلى من كل رجل، من الخصر إلى باطن الحذاء. وعندما أشبع بصرَه أغلق عينيه لوهلة وهز رأسه وكأنه وصل إلى قناعة بأن ما رآه للتوّ ليس شيئا ذا بال. ثم أمال رأسه بثقة إلى الوراء، واستوعب هالةَ الوجوهِ من حوله بتحديقة واحدة طويلة طوّافة. كان هناك كيسٌ نصفُ مملوءٍ من ذَرْقِ الطيورِ في الجانب الأيسر من المتجر، وعندما ألِفَ الأحدب موضعه مما حوله جلس على الكيس. وإذ جلس بارتياح، وساقاه الضئيلتان متصالبتان، أخذ من جيب معطفه شيئا ما.

استغرقت استعادةُ الرجالِ في المتجر راحتَهم بعض الوقت. ميرلي راين، صاحب الحُمّى الثلاثية الذي بدأ الشائعة في ذلك اليوم، كان أول من تحدث. نظر إلى الشيء الذي كان يقلّبه الأحدب في يده، وقال بصوت خافت:

Twitter: @ketab_n

«ما هذا الذي في يدك؟»

عرف الرجالُ جميعُهم جيدا ما الذي كان الأحدبُ ممسكا به. لأنه لم يكن سوى علبةِ سعوطٍ كان والد الآنسة أميليا يملكها، علبة سعوط ذات طلاءٍ أزرق مع زخرفةٍ أنيقة دُقّت بالذهبِ على الغطاء. عرفها الرجال تمامَ المعرفةِ فاندهشوا. نظروا بحذرٍ إلى باب المكتب المغلق وسمعوا الصوتَ الخفيضَ للآنسة أميليا وهي تصفّر لنفسها.

«نعم، ما هوَ أيها التافه؟»

رفع الأحدبُ بصرَه سريعا وشحذَ فمَه لكي يتحدث: «إنها حيلةٌ لاصطياد المتطفلين.»

أدخل الأحدب في العلبةِ أصابعَه الصغيرة التي يعوزها التناسقُ وأكل شيئا، لكنه لم يعرضْ على أحدٍ من حوله أن يذوقه. لم يكن سعوطا مألوفا ذلك الذي تناوله، بل مزيجا من السكر والكاكاو. مع ذلك تناوله كما لو كان سعوطا، داسّا حشوةً صغيرةً منه تحت الشفة السفلى ولاحسا الحشوةَ بضربةٍ رشيقةٍ مدرّبةٍ من لسانه، الأمر الذي جعل تكشيرةً متكررةً تظهر على وجهه.

قال شارحا: «طالما كان لأسنانِ رأسي مذاقٌ حامضٌ في فمي. هذا هو السبب الذي يجعلني أتناول هذا الصنفَ من السعوط الحلو.»

لم تزل المجموعةُ متجمهرةً، وهي تشعر بأنها متحيرةٌ وخرقاءُ بطريقة ما. لم يبتعد هذا الشعور أبدا ولكن ما لبث أن خفّف منه شعورٌ آخر—نفحةٌ من الحميمية في الغرفة والاحتفالية الغامضة. كانت أسماء الرجال في المجموعة في ذلك المساء كالآتي: مالون المتسرع، روبرت كالثرت هيل، ميرلي راين، تي إم ويلين المبجل، روسر كلاين، ريب ويلبورن، هنري فورد كريمب، هوراس ويلز. فيما عدا ويلين المبجل، كلهم يتشابهون في نواحي عدة كما قيل—كلهم قد وجد متعته

Twitter: @ketab_n

في شيء أو آخر، كلهم قد بكى وعانى بطريقة أو بأخرى، معظمهم طيّعٌ ما لم يكن ساخطا. كل واحدٍ منهم عمل في مصنع القطن وعاش مع آخرين في منزلٍ بغرفتين أو ثلاث سعرُ إيجاره عشرةُ دولاراتٍ أو اثنا عشر دولارا في الشهر. كلهم قد صُرف له راتبُه في ذلك المساء، إذ كان يومَ السبت. هكذا، في الوقت الراهن، فَكِّرْ فيهم باعتبارهم كتلة واحدة.

وعلى الرغم من ذلك، كان الأحدب قد بدأ بالفعل في تمييزهم في ذهنه. بدأ، وقد جلس بارتياح، في الدردشة مع الجميع، يطرح أسئلةً من قبيلِ كم عمر الرجل إذا كان متزوجا، ما معدل أجرته في الأسبوع، وهلمّ جرّا—مختارا طريقَه عبر أسئلةٍ مباشرةٍ وحميمية. وسرعان ما انضم إلى المجموعة آخرون من البلدة، هنري ميسي وعاطلون أحسّوا بوجود شيء استثنائي، ونساء أتيْنَ لجلبِ رجالهن المتسكعين، بل وحتى طفل طليق مضفَّر الشعر دخل المتجر على رؤوس أصابعه، وسرق علبةً من المقرمشات المقصوصة على شكل حيوانات، وفرّ في هدوء تام. ازدحم مبنى الآنسة أميليا إذن بالناس سريعا، ولم تفتح هي نفسها بابَ مكتبها بعد.

هناك نوع من الأشخاص يتمتع بخاصيةٍ تميّزه من البشر العاديين الآخرين. لدى هذا النوع غريزةٌ لا توجد عادةً إلا عند الأطفال الصغار، ألا وهي غريزةُ إقامةِ تواصلٍ مباشرٍ وحيويٍّ بين نفسه وكلّ الأشياء في العالم. بكل تأكيد كان الأحدب من هذا النوع، إذْ لم يمر على وجوده في المتجر أكثرُ من نصف ساعة حتّى أقام تواصلا مباشرا بينه وبين جميع الأفراد الآخرين. بدا الأمر كما لو أنه عاش في البلدة سنوات، كما لو أنه شخصيةٌ مشهورة، كما لو ظل جالسا على كيسِ ذرقِ الطيورِ ومتحدثا لعددٍ لا يحصى من الأماسي. هذا الشيء، إضافة إلى حقيقةِ

Twitter: @ketab_n

أنها ليلة السبت، يمكن أن يفسّر نفحةَ الحريةِ والسرورِ المحظورِ في المتجر. كان هناك أيضا توترٌ ما، بسبب غرابة الحالة من جهة وبسبب أن الآنسة أميليا لا تزال حابسةً نفسَها في مكتبها ولم تسجّل ظهورها بعد من جهة أخرى.

ظهرتْ تلك الليلة في الساعة العاشرة تماما. وأولئك الذين توقعوا بعض الدراما بدخولها خابَ ظنهم. فتحت الباب ومشتْ في اختيالها البطيء المتواني. كان هناك خطٌّ من الحبر على أحد جانبي أنفها، وكانت تعقد المحرمةَ الحمراءَ حول عنقها. بدا أنها لم تلاحظ شيئا خارجا عن المألوف. نظرت عيناها الرماديتان الحولاوان إلى حيث يجلس الأحدب، وظلتا هناك بعض الوقت. أما بقية الحشد فتأملتهم فقط باندهاش مسالم.

«أيريد أحدٌ أن أقوم بخدمته؟»

كان هناك عدد من الزبائن، لأنها ليلة السبت، وكلهم يريد الشراب. كانت الآنسة أميليا قد استخرجت برميلا معتّقا قبل ثلاثة أيام فقط وفرّغته في قوارير في المِقْطرة. هذه الليلة أخذت النقود من الزبائن وعدّتها تحت الضوء الساطع. هكذا كان الإجراء المعتاد. لكن ما حدث بعد هذا لم يكن عاديا. قبل تلك الليلة كان ضروريا أن يمشي الزبون إلى الفناء الخلفي المعتم وهناك تُناوله قارورته عبر باب المطبخ. لم يكن هناك إحساسٌ بالاستمتاع في العملية. وبعد حصول الزبون على مشروبه يغادر ماشيا في لُجّة اللّيل. أمّا إن كانت زوجته لا تحب أن يشرب في المنزل فيُسمح له أن يعود إلى شرفة المتجر الأمامية ويعبّ مشروبه هناك أو في الشارع. وكلاهما تعود ملكيتهما إلى الآنسة أميليا، ولا جدال في هذا، لكنها لم تعتبرهما مِلكها. بل كانت تعتبر أنّ ملكيتها تبدأ من الباب الأمامي ثم تستوعب كامل المبنى من الداخل.

Twitter: @ketab_n

وهناك لم تسمح أن يفتح أي أحد سواها مشروبا أو يشربه. والآن تخرق هذا القانون للمرة الأولى. ذهبت إلى المطبخ، يتبعها الأحدب قريبا منها تماما، وأعادت القوارير إلى المتجر الدافئ المضيء. إضافة إلى ذلك قدمت بعض الكؤوس وفتحت علبتَي رقاقات ووضعتهما هناك في طبقِ ضيافةٍ على المنضدة ليأخذ منهما مَن يريدٍ مجانا.

لم تتحدث لأحد عدا الأحدب، واكتفت بسؤاله بصوت خشن قليلا وأجش: «ابن الخالة لايمن، هل تريد أن تكون رقاقتك كما هي أم تريدها مسخَّنة في مقلاةٍ على ماء الموقد؟»

قال الأحدب: «لو تكرمتِ يا أميليا.» (ومنذ متى افترض أحدٌ أن يخاطب الآنسة أميليا باسمها المجرد من دون أي لقب يدل على الاحترام؟ بكل تأكيد لم يكن عريسها وزوجها لمدة عشرة أيام يفعل. والحقّ أنه منذ وفاة والدها الذي كان دائما ما يدعوها لسببٍ غيرِ معلوم صغيرتي، لم يجرؤ أحد على مخاطبتها بهذه الألفة.) «أرجوكِ أريدهً مسخنا.»

هكذا كانت بداية المقهى، بكلّ تلك البساطة. تذكّروا أنّ اللّيل كان كئيبا كلَيْلِ الشتاء وأن الجلوس في الخارج حول المبنى يمكن أن يفضي إلى مهرجان مؤسف. لكن في الداخل هناك رفقةٌ ودفءٌ أنيس. حرّك أحدُهم الموقدَ في الخلف، وأولئك الذين ابتاعوا قوارير تشاركوا الشراب مع أصدقائهم. كانت هناك نساءٌ كثيراتٌ تناولن عيدان عرقِ السوس الملتوية أو عصير نيهاي أو حتى جرعة من الويسكي. وكان الأحدب لا يزال حدثا جديدا فأدخل حضورُه السلوى على الجميع. أحضر المقعدُ الموجودُ في المكتب، إضافة إلى مزيدٍ من الكراسي الإضافية. اتكأ أناسٌ آخرون على المنضدة أو أخذوا راحتهم على البراميل والأكياس. ولأوّل مرّة لم يسبب تقديم الشراب في ملكيةٍ أيّ شغبٍ أو قهقهاتٍ غيرِ لائقةٍ

Twitter: @ketab_n

أو سوءِ سلوكٍ على الإطلاق، بل على العكس من ذلك كانت الرفقةُ مهذبةً إلى درجة معينة من الاحتشام. لأن الناس في هذه البلدة لم يكونوا معتادين على التجمع سويا من أجل المتعة. كانوا يتقابلون من أجل العمل في مصنع القطن. كان هناك اجتماعٌ مخيم كنسيّ في أيام الآحاد يستمر طوال اليوم، ولكن على الرغم من أنه شكل من أشكال المتعة فإن القصد من المسألة برمّتها هو شحذُ رؤيةِ الفرد عن الجحيم وزرعُ مخافة العليّ العظيم في قلبه. لكن روح المقهى مختلفة تماما. حتى أغنى الأَنذال وأكثرهم طمعا يؤدب نفسه، من دون أن يؤذي أحدا في مقهى محترم. والفقراء ينظرون إلى أنفسهم باعتراف بالجميل ويُمسكون بالملاّحة بأسلوب متأنق ومتواضع. لأن جوّ المقهى اللائق يُوحي بهذه السمات: الرفقة، وشبع المعدة، وبهجة خاصة، وكياسة السلوك. لم يُخبرْ أحدٌ أبدا الحشد الذي اجتمع في متجر الآنسة أميليا تلك الليلة بهذه الأشياء. لكنهم عرفوها من تلقاء أنفسهم، وإن لم يكن في البلدة، حتى تلك اللحظة بالطبع، أيّ مقهى من قبل.

قضت الآنسة أميليا المتسبّبة في كل هذا، معظم المساء واقفةً في المدخل المؤدّي إلى المطبخ. ظاهريًا لم يبدُ أنها تغيرت إطلاقا. لكنّ كثيرين هناك لاحظوا وجهها. كانت تراقب كل ما يحدث غير أن عينيها ظلّتا معظم الوقت مثبتتين بوحدةٍ على الأحدب. مشى مختالا عبر المتجر، آكلا من علبة سعوطه، فظًا ومريحا في الوقت نفسه. ألقى الضوء المنبعث من شقوق الموقد وهجًا على المكان الذي وقفت فيه الآنسة أميليا فبدا وجهُها الطويل الداكن مشعّا بطريقة ما. بدا أنها تنظر نحو داخلها. كان في ملامح وجهها ألمٌ وحيرةٌ وسرورٌ متردد. لم تكن شفتاها مزمومتين بصرامة كما جرت العادة، وكانت كثيرا ما تبلع ريقها. ذوى بريقُ بشرتِها ورشحت يداها الضخمتان الفارغتان

Twitter: @ketab_n

بالعَرَق. كانت نظرتُها تلك الليلة إذن نظرةَ العاشق في عزلته.

افتتاح المقهى هذا وصل إلى ختامه عند منتصف الليل. شيّع الجميع بعضهم بعضا بأسلوب ودّي. أقفلت الآنسة أميليا الباب الأمامي لمبناها ولكنها نسيت أن توصده. وسرعان ما رانَ الظلام والصمت على كل شيء، الشارع الرئيس بمتاجره الثلاثة، المصنع، المنازل، البلدة بأكملها في الحقيقة. وهكذا انتهت ثلاثةُ أيام بلياليهن حدثَ فيها قدومُ رجلٍ غريبٍ، وعيدٌ غير مقدس، وافتتاحُ مقهى.

Twitter: @ketab_n

الآن يجب أن يمر الوقت، لأن السنوات الأربع التي تلت كانت متشابهة. لقد حدثت تغيّرات مهمة، لكن هذه التغيرات وقعت شيئا فشيئا، في خطوات بسيطة ما كانت تبدو حينها بتلك الأهمية. استمر الأحدب في العيش مع الآنسة أميليا. توسع المقهى توسّعا تدريجيا. بدأت الآنسة أميليا في بيع خمرها بالتجزئة، وأضيفت بضعُ طاولات إلى المقهى. كان هناك زبائن كل مساء، وفي أيام السبت كان هناك حشدٌ كبير. بدأت الآنسة أميليا في تقديم وجبة عشاء سمك السلور المقلي بسعر خمسة عشر سِنْتا للصحن الواحد. تزلّف إليها الأحدب وأقنعها بشراء بيانو فاخر. وخلال عامين لم يعُد المكانُ متجرا بل حُوّل إلى مقهى محترم يُفتح كل مساء من الساعة السادسة حتى الساعة الثانية عشرة.

كل ليلة ينزل الأحدب عبر السلّم بروح مَن يحمل رأيا جليلا عن نفسه. كان له دائما رائحةٌ كأنها اللفت الأخضر، إذ داومت الآنسة أميليا على تدليكه في الليل والصباح بغَسول اللحم حتى تقوّيه. لقد دلّلته إلى درجةٍ تتجاوز المنطق، لكن، لا شيء كان يقويه. ولم يُسهم الطعام إلاّ في تضخيم سنامه ورأسه بينما ظل باقي جسمه ضعيفا ومشوها. أما الآنسة أميليا فبقي مظهرها كما كان عليه. ظلّت ترتدي أثناء الأسبوع حذاءَ المستنقع المطاطي والبنطال الشيال، وفي أيام الآحاد تلبس فستانا أحمر قانيا ينسدل عليها بطريقة استثنائية. ومع ذلك فقد تغيّرت عاداتُها وطريقتها في الحياة تغيرا هائلا. لا

Twitter: @ketab_n

زالت تحب الدعاوي القضائية الشعواء ولكنها لم تعد سريعةً في خداع خصمها وانتزاع مبالغَ بقسوة. ولأن الأحدبَ مفرطٌ في مخالطة الناس أصبحت تخرج أحيانا—إلى اجتماعات الصحوة الدينية، وإلى المآتم، ونحوها. أما تطبيبها فاستمر في النجاح، وكذلك أصبح خمرها أطيبَ من ذي قبل، إن جاز التعبير. أثبت المقهى أنه مربحٌ ففدا المكانَ الوحيدَ للمتعة في نطاق أميال.

تخيلوا الآن للحظة هذه السنوات من زوايا عشوائية وغير مترابطة. تخيلوا الأحدب يتقدم متّبعا خطى الآنسة أميليا حين ينطلقان في صباح شتاءٍ أحمرَ للصيد في غابة الصنوبر. تخيلوهما يعملان في دارهاَ، وابنِ الخالة لايمن واقف هناك لا يقوم بشيء تقريبا، لكنه سريعٌ في التنبّه إلى أي تراخٍ ضمن الأيدي العاملة. في عشايا الخريف كانا يجلسان على الدرجاتِ الخلفية يجزّان أعواد قصب السكر. أمّا أيام الصيف الساطعة فيقضيانها في المستنقع حيث أشجار سرو الماءِ خضراءُ داكنة، وحيث ظلال أشجارِ المستنقع المتشابكة عتمةٌ ناعسة. حين يخترق الدربُ وَحْلا أو بقعةَ ماءٍ آسنٍ تخيلوا الآنسة أميليا تنحني لتدعَ ابن الخالة لايمن يتسلق ظهرهاَ—وتصوروها تخوض غَمرة الماء متقدمةً فيما الأحدب جاثمٌ على كتفها ومتشبثٌ بأذنيها أو بجبهتها العريضة. من وقت لآخر كانت الآنسة أميليا تدير سيارة الفورد التي ابتاعتها وتأخذ ابن الخالة لايمن لمشاهدة فيلم في تشيساو أو لمعرض مصارعة ديكة بعيد؛ إذ كان الأحدب يجد لذةً في مشاهد الفُرجة وشغفا بها. بطبيعةِ الحال كانا في مقهاهما كل صباح. كانا غالبا ما يجلسان معا لمدة ساعات أمام المدفأة في ردهة الطابق العلوي. لأن الأحدب يسقم في الليل فهو يفزع من أن يستلقي مُبحلقا في الظلام. كان يساوره خوفٌ عميقٌ من الموت. وما كانت الآنسة أميليا

Twitter: @ketab_n

تتركه وحيدا يعاني من هذا الفزع. يمكن الاستنتاج أن ازدهارَ المقهى مردودٌ بصورة أساسية إلى هذه النقطة؛ إذ كان المقهى شيئا جلب له الرفقة والمتعة وساعده في تمضية الليل. إذن كوِّنوا من هذه الفلاشات صورة متكاملة لتلك السنوات، ودعوها جانبًا لوهلة.

Twitter: @ketab_n

الآن لا بد من بعض التوضيح لكل هذا السلوك. آن أوانُ الحديث عن الحب. لأن الآنسة أميليا أحبّت ابن الخالة لايمن حبا جمّا كان باديا للجميع. عاشا معا في المنزل نفسه ولم يُشاهَدا مفترقين لحظةً واحدة. لهذا، وبحسب السيدة ماكفيل، وهي عجوزٌ متطفلةٌ تغطي أنفها الثآليل ولا تفتأ تنقّل أثاثَ حجرتها الأمامية المتقشفَ من ركنٍ إلى آخر، بحسب هذه العجوز وآخرين، كان هذان الاثنان يعيشان في الخطيئة. لو كانت تجمعهما صلةُ قرابة، فلن يكونا سوى درجة واحدة بين بَني الخال المباشرين وبني الخال الثانويين، وحتى تلك الصلة لا يمكن إثباتها بحال من الأحوال. بالطبع كانت الآنسة أميليا شخصا داهيةً وقويا، تفوقه بستّ أقدام طولا—وكان ابن الخالة لايمن مجرد أحدب هزيل لا يبلغ بطوله أبعدَ من خصرها. لكن حتى هذا أفضل بكثير بالنسبة إلى السيدة ماكفيل وصديقاتها المقربات، لأنهن ومن على شاكلتهن يمجّدن الاقترانات المنحوسة والمثيرة للشفقة. ليكنّ لهنّ ما أرَدْن. الطيبون من الناس رأوا أنه إنْ كان الاثنان قد وجدا بعض القنوع الجسدي فيما بينهما فإنّ ذلك شأنٌ يخصّهما هما والله فحسب. اتفق العقلاءُ جميعا حول هذا الرأي—وكانت إجابتهم صريحة وواضحة: لا. أيّ نوع من الحب إذن كان هذا الذي جمعهما؟

بادئ ذي بدء، الحب تجربة مشتركة بين شخصين—لكن حقيقةَ أنها تجربةٌ مشتركةٌ لا تعني أنها تجربة متشابهة بالنسبة إلى الفردين المعنيّين. فهناك المُحِبّ والمحبوب، ولكنّ ذَيْنكِ الاثنين من مقاطعتين

Twitter: @ketab_n

مختلفتين. غالبا ما يكون المحبوبُ مجرّدَ محفزٍ لكل الحب المخزون الموجود بهدوء داخل المحب حتّى تلك اللحظة. وبطريقة ما يَعرف هذا الأمرَ كلُّ مُحب. إنه يشعر في روحه أن حبَّه شيءٌ فرديّ. إنه يهتدي إلى معرفةِ وَحْدةٍ جديدة وغريبة، وهذه المعرفة أصلُ مكابدته. إذن ليس هناك سوى شيءٍ واحدٍ يفعله المُحب. يتعيّن عليه أن يُسكِن حبه في جوفه ما استطاع، يتعيّن عليه أن يخلق لنفسه عالما داخليا جديدا كُليًّا—عالما حادا وغريبا ومكتملا في ذاته. تجدر الإضافة هنا أن هذا المحب الذي نتحدث عنه ليس بالضرورة أن يكون شابا يدخر ماله من أجل خاتم زواج—هذا المحب قد يكون رجلا أو امرأة أو طفلا أو أي مخلوق بشري على وجه هذه الأرض.

أما المحبوب فقد يكون له أي وصف أيضا. أغربُ الناس قد يكون باعثًا على الحب محفزا له. قد يكون رجلٌ جَدّا خَرِفا ومع ذلك لا يحب إلا فتاة غريبة رآها في شوارع تشيساو ذات ظهيرة قبل عقدين من الزمن. قد يحب الواعظُ امرأةً منحطّة. قد يكون المحبوب خائنا أحمق ميّالا إلى أردى الطباع. أجل، وقد يرى المحب هذا الشيء بكل وضوح كما يراه أي شخص آخر، غير أن ذلك لا يؤثّر مثقالَ ذرةٍ على نموّ حُبّه. إنّ شخصا عاديًّا جدًّا قد يكون هدفا لحبّ جامحٍ ومتهورٍ وجميلٍ مثل زنابق المستنقع السامة. وقد يكون رجلٌ خيّرٌ محفّزا لحبٍ عنيفٍ ومُهين، أو قد يبعث مخبولٌ ثرثارٌ في روح أحدهم أنشودةً رقيقةً وبريئة. ولهذا فإن قيمة أي حب وطبيعته يحددهما المحب وحده.

لهذا السبب يُفضّل أكثرُنا أن يُحِبّ عِوَضا عن أن يُحَبّ. يرغب كل إنسان تقريبا في أن يكون المُحِب. والحقيقة الفجّة أن كثيرين لا يُطيقون، بطريقة عميقة وغامضة، أن يكونوا محبوبين. إن المحبوب يخشى المحب ويكرهه، ولأكثر الأسباب وجاهة. لأن المحب على

Twitter: @ketab_n

الدوام يحاول أن يجرّد محبوبه. يتوقُ المحب إلى أي علاقة ممكنة مع المحبوب، حتى وإن كان حَريًّا ألّا تجلب له هذه التجربة سوى الألم.

Twitter: @ketab_n

ذُكِر من قبلُ أن الآنسة أميليا كانت قد تزوجت فيما مضى. ولا ضَيْرَ في تناولِ هذه الحلقة المثيرة للفضول الآن بالتفصيل. تذكروا أن كل شيء قد حدث منذ وقت طويل وأنه كان تجربة الآنسة أميليا الشخصية الوحيدة قبل أن يجيء إليها الأحدب بهذه الظاهرة— الحب.

كانت البلدة آنذاك كما هي عليه الآن، ما عدا أنه كان هناك متجران بدلا من ثلاثة وكانت أشجار الدراق على امتداد الشارع أكثر انحناءً وأصغر مما هي الآن. كانت الآنسة أميليا في التاسعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت وكان أبوها قد توفي منذ شهور عديدة. وكان في البلدة حينها نَسّاجٌ يدعى مارفن ميسي. كان أخا هنري ميسي، على الرغم من أنك لن تستطيع أبدا تخمينَ أن هذين الاثنين أقرباء. لأن مارفن ميسي كان أوسم الرجال في هذه المنطقة—بطولٍ يصل إلى ست أقدام وإنش، وعضلات مفتولة، وعينين رماديتين بطيئتين وشعرٍ أجعد. كان ميسور الحال، إذ يتقاضى راتبا جيدا ويحمل ساعة ذهبية تنفتح من الخلف على صورةٍ لشلال. ظاهريا ومن وجهة نظرٍ دنيوية كان مارفن ميسي رجلا محظوظا، إذ لم يكن في حاجةٍ لأن ينحني أو يركع لأحد، ودائما ما كان يحصل على ما يريد بالضبط. لكن من وجهة نظرٍ أكثر جديةً ورصانةً لم يكن لدى مارفن ميسي ما يُحسد عليه لأنه كان شخصية شريرة. كانت سمعته بسوءِ سمعةِ أي شابٍ في المقاطعة إن لم تكن أسوأ. عندما كان صبيا، حمل معه لسنواتٍ الأُذُنَ

Twitter: @ketab_n

المجفّفة المملّحة لرجلٍ كان قد قتله في شجارٍ بموس حلاقة. كان يجزّ أذيال السناجب في غابة الصنوبر من أجل إرضاء نزوته، وفي جيب وركه الأيسر يحمل حشيشةَ القنّبِ المحرّمةِ لإغواء أولئك المُثَبَّطين والنازعين إلى الموت. لكن على الرغم من سمعته الذائعة كان معشوقَ كثيرٍ من الفتيات في هذه المنطقة—وكانت هناك في ذلك الوقت عدةُ فتيات شابات نظيفات الشعر لطيفات العيون بأرداف صغيرة غضة وفاتنة وطباعٍ خلّابة. هؤلاء الفتياتُ النواعمُ حطّ من قدرهن وجلبَ لهن الخِزْيَ. ثم في الأخير، في سن الثانية والعشرين، اختار مارڤن ميسي هذا الآنسةَ أميليا. تلك الفتاة الوحيدة الفاترة غريبة العين كانت الواحدةَ التي تمنّاها. ولم يكن يريدها بسبب مالها، ولكن بدافع الحب فقط.

غيّر الحبُّ مارڤن ميسي. قبل أن يحب الآنسة أميليا كان من الممكن التساؤلُ عما إنْ كان شخصٌ مثله يحمل في داخله قلبا وروحا. ومع هذا فإن هناك تفسيرا لبشاعة شخصيته، لأن مارڤن ميسي مرّ ببداية قاسية في هذا العالم. كان أحدَ سبعةِ أطفالٍ منبوذين يصعب تماماً أن يُطلَق على والديهم والدَيْن. كان ذانك الوالدان في صغرهما غليظين يحبان صيد السمك والتجول في المستنقع. ولم يكن أبناؤهما وهم يزدادون واحدا في كل عام سوى مصدرِ إزعاجٍ بالنسبة إليهما. عندما يعودان إلى البيت من المصنع ليلا ينظران إلى الأطفال كما لو كانا يجهلان من أي جهةٍ أتوا. لو صاح الأطفال فإنهم يُضربون، فكان أول ما تعلموه في هذا العالم هو البحث عن أكثر ركن في الغرفة إعتاما ومحاولة إخفاءِ أنفسهم ما استطاعوا. كانوا نحافا مثل أشباح شِيبٍ، ولم يكونوا يتكلمون، ولا حتى فيما بينهم. أخيرا هجرهم والداهما إلى الأبد تاركَيْن إياهم إلى رحمة أهل البلدة. كان شتاءً قاسيا، إذ

Twitter: @ketab_n

أُغلق المصنعُ لما يقارب ثلاثة أشهر وكان البؤس في كل مكان. لكن هذه البلدة ليست بلدةً تدع اليتامى البِيض يهلكون في الطرقات أمام الأعين. إليكم إذن ماذا حصل: أكبر الأطفال الذي كان يبلغ الثامنة من العمر، غادر راجلا إلى تشيساو واختفى. لعله استقلّ قطارَ بضائع إلى مكان ما وخرج إلى العالم، لا أحد يعلم. ثلاثةُ أطفالٍ آخرونَ تبنّتهم أسرٌ مختلفة في البلدة بشكل مؤقت، فكانوا ينتقلون من مطبخ إلى آخر، وبما أنّهم كانوا ضعافا فقد لقوا حتفهم قبل أن يحين عيد الفصح. آخر طفلين كانا مارڤن ميسي وهنري ميسي وأُخذا إلى بيت تعهدهما بالرعاية. كانت هناك امرأةٌ خيّرةٌ في البلدة تُدعى السيدة ميري هيل، أخذت مارڤن ميسي وهنري ميسي وأحبّتهما كما لو كانا ابنيها. رُبّيا في منزلها وقُوبلا بمعاملة حسنة.

لكن قلوبَ الأطفالِ الصغارِ أعضاءٌ مرهفة. إن بدايةً وحشيةً في هذا العالم في وسعها أن تشوهها إلى أشكال غريبة. يمكن أن ينكمش قلبُ طفلٍ مجروح بحيث يغدو بعد ذلك صلبا ومُنَفَّرا إلى الأبد مثل بذرة دراق. أو مرةً أخرى، قد يتقيح قلبُ طفلٍ كهذا وينتفخ حتى يكون معاناةً تُحمل في الجسد سرعان ما تُغيظها أكثرُ الأشياءِ عاديةً أو تؤذيها. هذا الاحتمال الأخير هو ما حدث لهنري ميسي الذي كان، على عكس أخيه تماما، أكثر رجال البلدة طيبةً ولُطفًا. إنه يُقرِض من أجرته أولئك المُعسِرين، وفي الأيام الخوالي يرعى الأطفال الذين يرتاد آباؤهم المقهى في ليالي السبت. لكنه رجلٌ حَيِيٌّ وعليه تبدو أماراتُ الرجل الذي يحمل في جوفه قلبا متورّما ويعاني. في المقابل، كبُر مارڤن ميسي ليكون جريئا وجسورا وقاسيا. استحال قلبه صلبا مثل قرني الشيطان، وفي الوقت الذي سبق حُبُّه للآنسة أميليا لم يجلب لأخيه والمرأة الخيّرة التي ربّته سوى العار والمشاكل.

Twitter: @ketab_n

لكن الحب قلَبَ شخصية مارڤن ميسي رأسا على عقب. لمدة عامين أحبّ الآنسة أميليا دون أن يبوح بحبّه. كان يقف إلى جوار باب دارها، قبعته في يده، عيناه خانعتان ومتلهفتان يغشاهما سديمٌ رمادي. لقد أصلح نفسه كُليّا، فصار طيّبا مع أخيه وأمه الّتي تبنّته، وادّخر أجوره إذْ تعلّم التدبير. علاوة على ذلك مدّ إلى الله وصلا. لم يعد يستلقي كل أحد على أرض الشرفة الأمامية طوال اليوم يغني ويعزف على قيثارته، بل أخذ يرتاد قُدّاس الكنيسة ويحضر كل الاجتماعات الدينية. تعلّم الآداب الحسنة: درّب نفسه على أن ينهض من مكانه ويقدّم كرسيه لسيدة، كما أقلع عن الشتم والعراك وهجر استخدامَ الأسماء المقدسة في لغوِ الكلام. إذن مرّ بهذا التحول خلال عامين وهذّب شخصيته بكل طريقة ممكنة. ثم في نهاية العامين ذهب ذات مساء إلى الآنسة أميليا حاملا في يده حزمةً من ورود المستنقع وكيس نقانق وخاتما من الفضة—في تلك الليلة أعلن مارڤن ميسي عن نفسه عاشقا.

وتزوجته الآنسة أميليا. لاحقا تساءل الجميع عن السبب. بعضهم قال إن السبب في كونها أرادت أن تحصل لنفسها على هدايا زواج. واعتقد آخرون أنها أرادت أن تُسكِت التذمّرَ المستمر لعمّة أبيها في تشيساو، تلك العجوز المرعبة. على كل حال، خطت خطواتٍ واسعةً في ممر الكنيسة مرتديةً فستانَ أمّها المتوفاة، فستانا من الحريرِ الأصفر يقصُر عنها بمقدار اثني عشر إنشا على الأقل. كانت ظهيرةً شتويةً والشمس الصافية تشرق عبر نوافذ الكنيسة الياقوتية ملقيةً وهجا طريفا على الزوج الجالس أمام المذبح. حين قُرئت سطورُ الزواج استمرت الآنسة أميليا في القيام بحركة غريبة: كانت تفرك راحةَ يدها اليمنى على جانب فستان زفافها الحريري، مُحاولةً الوصول إلى جيب بنطالها الشيال ولأنها لم تكن قادرة على العثور عليه أمسى

Twitter: @ketab_n

وجهُها جَزِعا وضَجِرا وساخطا. في الأخير لمّا تُليت السطور وانتهت صلاة الزواج أسرعت الآنسة أميليا مغادرةً الكنيسة، من دون أن تأخذ بذراع زوجها، بل كانت تسبقه في مشيتها بخطوتين على الأقل.

لم تكن الكنيسة تبعد كثيرا عن المتجر ولذا عادت العروس والعريس مشيا على الأقدام. يقال إنه في الطريق بدأت الآنسة أميليا تتحدث عن صفقةٍ كانت تُجريها مع مُزارعٍ حولَ حمولةٍ من الحطب. في الحقيقة عاملت عريسها بنفس الطريقةً التي تتعامل بها مع أيّ زبونٍ دخل إليها في المتجر ليبتاع قدحا من الشراب. لكن حتى تلك اللحظة سار كل شيء بشكل محترم، فقد شعر أهل البلدة بالرضى وهم يرون ما فعل هذا الحبُّ بمارڤن ميسي، كما رَجَوْا أن يُصلِح عروسَه أيضا. على الأقل، عوّلوا على الزواج في التخفيف من حدة طبعها، لعلّه يركم عليها قليلا من دهن العرس، ويحوّلها أخيرًا إلى امرأةٍ رشيدة.

لقد كانوا مخطئين. الصّبْية الذين أخذوا يشاهدون عبر النافذة تلك الليلة قالوا إن هذا ما حدث بالضبط: تناول العروسُ والعريسُ عشاءً فخما أعدّه جيف، الزنجي العجوز الذي كان يطهو لدى الآنسة أميليا. أخذت العروس غَرْفتين من كل صنف أما العريس فانتقى ما يأكله. بعد ذلك عادت العروس إلى أشغالها المعتادة—قرأت الجريدة، أكملت جَرْدا بمُؤَنِ المتجر، وهكذا دواليك. تسكع العريس عند المدخل بوجهٍ مُرْتَخٍ وسخيفٍ وهانئٍ لم تلاحظه عروسه. عند الساعة الحادية عشرة أخذت العروس مصباحا وصعدت إلى الأعلى. تبعها العريس قريبا منها. حتى الآن سار كل شيء بشكل محترم، لكن الذي تلا ذلك كان شريرا.

خلال نصف ساعة نزلت الآنسة أميليا، تسير الهُوَيْنى، عبر السلّم في بنطالٍ خيشيّ ومعطفٍ خاكيّ. اكفهرّ وجهها إلى درجةٍ بدا معها

Twitter: @ketab_n

وكأنه أسودُ فعلا. صفقت باب المطبخ وركلته ركلةً فظّةً ثم استعادت هدوءها. أضرمت النارَ وجلست ثم وضعت قدميها على موقد المطبخ. قرأت روزنامة المزارع[1] واحتست قهوةً ودخنت بغليون والدها. كان وجهها صلبا ومتجهما لكنه عاد الآن إلى لونه الطبيعي. كانت تتوقف بين الفينة والأخرى كيما تدوّن بعض المعلومات من الروزنامة على قصاصة ورق. وقُبيل الفجر دخلت مكتبها وأزاحت الغطاء عن آلتها الكاتبة التي كانت قد اشترتها مؤخرا ولا تزال تتعلم كيفية استخدامها. هكذا قضت كاملَ ليلة زواجها. عند الشروق خرجت إلى فنائها وكأن شيئا لم يحدث أبدا وقامت ببعض أعمال النجارة متمثلةً في قفص أرانب كانت قد بدأته الأسبوع الماضي وتنوي أن تبيعه في مكان ما.

يكون العريس في حرج مثير للشفقة عندما لا يقدر على أخذ عروسه التي يهيم بها إلى السرير معه، وخصوصا عندما تعرف هذا البلدةُ بأسرها. نزل مارڤن ميسي ذلك اليوم وهو لا يزال في أناقة الزواج، ولكن بوجه سقيم. الله وحده يعلم كيف أمضى ليلته. ذرعَ الفناءَ مُطرقا رأسَه ومراقبا الآنسة أميليا ولكنّه ظلّ محتفظا ببعض المسافة بينه وبينها. ثم في الضحى طرأت على باله فكرةٌ فغادر حالا في اتجاه مدينة المجتمع. عاد بهدايا—خاتم بحجرِ أوبال الكريم، وحمّالة صدرٍ وردية مطلية من نوع «دورين» الذي كان حينها في الموضة، وسوارٍ فضيٍّ عليه قلبان، وعلبة حلوى كلّفت دولارين ونصف. تصفّحت الآنسة أميليا بعينيها هذه الهدايا الثمينة وفتحت صندوق الحلوى، إذ كانت جائعة. أما بقية الهدايا فقدّرت ثمنَها بدهاء في لحظات لتجمع قيمتها، ثم عرضتها على منضدة المتجر للبيع. قُضيت

(1) «روزنامة المزارع» دوريّة قديمة تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية سنويا وتقدّم معلومات عن الطقس والفلك ونصائح في الصيد والطبخ وغيرها. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الليلة تقريبا بنفس الطريقة التي قُضيت بها سابقتُها—ما عدا أن الآنسة أميليا أحضرت مرتبتها المحشوّة بالريش لتتخذ منها سريرا عند موقد المطبخ، ونامت نوما عميقا.

استمرت الأمور على هذا الحال لمدّة ثلاثة أيام. انصرفت الآنسة أميليا إلى الاهتمام بشؤونها كالعادة وأبدت اهتماما كبيرا بشائعة راجت حول جسرٍ سيُبنى على بُعد حوالي عشرة أميال على الطريق. واظبَ مارڤن ميسي على تتبّعها حول الدار، وكان جليّا على وجهه مقدارُ معاناته. ثم في اليوم الرابع قام بتصرف أرعنَ إلى أبعد حد: لقد ذهب إلى تشيساو وعاد يصطحب محامياً. ثم في مكتب الآنسة أميليا وقّع بتمرير كل ممتلكاته الدنيوية إليها، وكانت عبارةً عن عشرة فدادين من الأرض المكسوة بالأشجار اشتراها من ماله الذي ادّخره. تفحصت الورقةَ بعبوسٍ حتى تتأكد من أنه ليس هناك احتماليةٌ لخديعةٍ ثم وضعتها في مَلفّ في دُرج مكتبها. تلك العشيّة أخذ مارڤن ميسي قارورةً بسعةِ رُبع غالون منَ الويسكي وانفرد بها في السبخة بينما كانت الشمس لا تزال حيّة. عند المساء عاد مخمورا، وصعد إلى الآنسة أميليا بعينين واسعتين مخضّلتين ثم وضع يده على كتفها. كان يحاول أن يخبرها بشيء، ولكنّ قبل أن يتمكن من فتح فمه سددت بقبضتها ضربةً واحدةً لكمت بها وجهَه بقوةٍ شديدةٍ لدرجة أنه ارتمى على الجدار وكُسرت إحدى ثناياه.

بقية هذه العلاقة لا يمكن وصفها إلا في موجز قصير. بعد هذه الضربة الأولى أخذت الآنسة أميليا تضربه كلما كان في متناول ذراعها وكلما كان مخمورا. وفي الأخير طردته من الدار جُملةً واحدة، وكان عليه أن يعاني جِهارا. أثناء النهار كان يحوم حول حدود دار الآنسة أميليا مباشرة وأحيانا كان، وبنظرة عليلة مجنونة، يُخرج بندقيته

Twitter: @ketab_n

ويجلس هناك ينظّفها وهو يحدق بتصميم في الآنسة أميليا. تصوّرها ستخاف ولكنّها لم تُبدِ أيّ خوف، فقط صار وجهُها أكثر تجهما من أي وقت مضى، وأصبحت تبصق كثيرًا على الأرض. آخرُ جهدٍ أحمقَ قام به هو أنّه تسلّق نافذة متجرها في إحدى الليالي وجلس هناك في الظلام، من دون أي هدف على الإطلاق، حتى نزلت عبر السلّم في الصباح التالي. ولهذا السبب راغت الآنسة أميليا مباشرة إلى المحكمة في تشيساو مقتنعةً بأنّها يمكن أن تحبسه في السجن بسبب التعدي على ممتلكات الغير. وفي ذلك اليوم غادر مارڤن ميسي البلدة، ولم يره أحد إذ غادر أو يعرف أحد إلى أين غادر. وقد ترك عند مغادرته تحت باب الآنسة أميليا رسالةً مطوّلةً مثيرة للفضول، كُتب نصفها بقلم الرصاص ونصفها الآخر بالحبر. كانت رسالةَ عشقٍ مجنون— لكنها اشتملت أيضا على تهديدات، كما أقسم أنه سيقتصّ منها في حياته. استمر زواجه لمدة عشرة أيام. وشعرت البلدة برضا من نوع خاص يشعر به الناس عندما تُمرّغ سمعةُ أحدهم في التراب بأسلوب فضائحي وفظيع.

تُرك للآنسة أميليا كلُّ شيء امتلكه مارڤن ميسي من قبل—قطعةُ الأرض الفنية بالخشب، ساعتُه الذهبية، كلُّ جزء من ممتلكاته. لكنها كانت على ما يبدو لا تُقيم لها وزنا وفي ذلك الربيع قصّت روبَ كو كلوكس كلان[1] الذي كان يحتفظ به وغطّت بالخِرَقِ التي قصّتها منه نباتاتِ التبغ. إذن كل ما قام به ضاعف ثروتها وجلب لها الحب. لكن من الغريب أنها لم تتحدث عنه أبدا إلا بمرارةٍ فظيعةٍ وضغينة. لم

(1) «كو كلوكس كلان» منظمة نشأت في الجنوب الأمريكي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ولا تزال تمارس نشاطها. دفعها إيمانُها بتفوق العِرق الأبيض، أبرز مبادئها، إلى ارتكاب جرائم عديدة أبشعها ما كان ضد السود. يرتدي أفرادها أرواباً بيضاء وقلنسوات مدببة ويتخذون من الصليب المشتعل شعارا. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

تُشِرْ إليه مرة واحدة بذكر اسمه بل كانت دائما ما تذكره بازدراءٍ باعتباره «النسّاج الذي كنتُ قد تزوجتُ منه.»

فيما بعد، عندما بلغت البلدةَ شائعاتٌ مرعبةٌ تتعلق بمارڤن ميسي، كانت الآنسة أميليا في غاية السرور. لأن الشخصية الحقيقية لمارڤن ميسي كشفت أخيرا عن نفسها لمّا تحرّر مارڤن من حُبّه. بات مجرما شوهدت صورته واسمه في جميع صحف الولاية. لقد سرق ثلاثَ محطاتِ وقودٍ ونشلَ تحت تهديد السلاح محل «أيه آند پي» في مدينة المجتمع مستخدما مسدسا قصير الفوهة. واشتُبه به في اغتيالِ سام ضيّق العينين الذي كان خاطفا مشهورا. ارتبطت هذه الجرائم كلها باسم مارڤن ميسي، ولذا ذاع صيتُ شرّه في مقاطعات عديدة. ثم قبض عليه القانونُ أخيرا وهو سكران في طابقِ مقصورةٍ سياحية، قيثارته إلى جواره، وسبعة وخمسون دولارا في حذائه الأيمن. حُوكِم وأدين ثم أرسل إلى السجن القريب من أتلانتا. فشعرت الآنسة أميليا بامتنان عميق.

حسنا، حدث كل هذا منذ وقت طويل، وهي قصةُ زواجِ الآنسة أميليا. ضحكت البلدة وقتا طويلا بسبب هذه العلاقة المَتنافرة. لكن على الرغم من أن الحقائق الظاهرية لهذا الحب حزينةٌ فعلا وسخيفةٌ، يجب أن يتذكر المرء أن القصة الحقيقية هي تلك التي وقعت في روح المحبّ نفسه. مَن غير الله في وسعه أن يكون الحَكَم النهائي لهذا الحب أو أي حب غيره؟ في الليلة الأولى من ليالي المقهى استعاد كثيرون فجأةً في أذهانهم هذا العريس المكسور، محبوسا في السجن المعتم، على بعد أميال كثيرة. وفي السنوات التي تلت، لم يُنسَ مارڤن ميسي أبدا في البلدة. لم يُذكر اسمه قط في حضور الآنسة أميليا أو الأحدب، لكن ذكرى شغفه وجرائمه، وتخيّله محبوسًا في زنزانته في

Twitter: @ketab_n

السجن، كانت مثل نبرة ثانوية مُقلقة تندسُّ خلف حب الآنسة أميليا السعيد وبهجة المقهى. لا تنسوا إذن مارڤن ميسي هذا، لأنّه سيلعب دورا فظيعا في القصة التي ستأتي.

* * *

خلال السنوات الأربع التي استحال المتجرُ فيها مقهى لم تتغير الغرف في الطابق العلوي. بقي هذا الجزء من المبنى تماما كما كان طوال حياة الآنسة أميليا، كما كان في عهد أبيها، وأغلب الظن كما كان في عهد جدّها. كانت الغرف الثلاث، حسبما هو معروف بين الناس، نظيفةً بإتقان. ظل أصغرُ شيء في مكانه بالضبط، وكل شيءٍ مسحَه جيف، خادمُ الآنسة أميليا، ونفضَ عنه الغبارَ كل صباح. أعطيت الغرفةُ الأماميةُ لابن الخالة لايمن—كانت الغرفة التي أقام فيها مارڤن ميسي خلال الليالي التي كان مسموحا له فيها أن يدخل الدار، وقبل ذلك كانت غرفةَ نوم والدِ الآنسة أميليا. الغرفة مؤثثة بخزانة كبيرة يعلوها معلاقُ ملابس، ومكتب مغطى بقماش خشن من الكتان الأبيض محبوكِ الحوافّ بالكروشيه، وطاولة رخامية السطح. كان السرير واسعا، سريرٌ عتيقٌ بأربعة أعمدة مصنوعة من خشب الورد الداكن المنقوش. عليه مَرْتبتان من الريش ووسادتان وعددٌ من اللُّحُف المشغولة باليد. وكان مرتفعا إلى درجة جعلتهم يضعون درجتين خشبيتين تحته—لم يستخدم أحدٌ من ساكني البيت هاتين الدرجتين من قبلُ قط، لكن ابن الخالة لايمن كان يسحبهما إلى الخارج كل ليلة ويصعدهما إلى السرير في أبّهة. وكان إلى جانب الدرجتين، إلى الوراء قليلاً بعيدا عن الأنظار، مرْحَضَةٌ[1] من الخزف رُسمت عليها زهورٌ قرنفلية اللون. لم تُغطِّ الأرضيةَ الداكنةَ المصقولةَ أيّةُ سجادة

(1) وعاء يُحتفَظ به قديما في غرفة النوم لاستخدامه مرحاضا داخليا أثناء الليل. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

وأما الستائر فكانت من القماش الأبيض، محبوكةَ الحوافّ بالكروشيه هي الأخرى.

على الجانب الآخر من الردهة كانت غرفةُ نوم الآنسة أميليا، وهي أصغر وأبسط بكثير. السرير ضيق ومصنوع مَن خشب الصنوبر. وهناك خزانةٌ لبناطيلها الخيشية وقمصانها وفستانِ الأحد، وقد قامت بطرق مسمارين في جدار الخزانة تعلّق عليهما حذاءَ المستنقع المطاطي. ولم تكن هناك ستائر أو سجادات أو زخارف من أي نوع.

الغرفة الوسطى الكبيرة، الردهة، كانت ذات تفاصيل أكثر. أمام المدفأة وقفتْ أريكةُ خشب الورد، المنجّدة بالحرير الأخضر العتيق. كان كل شيء فخما ومهيبا—طاولاتٌ رخاميةُ السطح، ماكينتا خياطة من ماركة سينجر، مزهريةٌ كبيرةٌ لعشب البمب. أكثرُ قطعِ الأثاث أهميةً في الردهة كانت خزانةً كبيرةً زجاجيةَ الواجهة حُفظَ فيها عددٌ من النفائس والتحف. أضافت الآنسة أميليا قطعتين إلى هذه المجموعة—إحداها ثمرةُ بلوط من شجرةِ بلوط مائيّ، والأخرى صندوقٌ مخمليٌّ صغيرٌ يحوي حصاتين صغيرتين رماديتين. أحيانا عندما لا يكون لدى الآنسة أميليا ما تفعله، كانت تُخرج هذا الصندوقَ المخمليَّ وتقف عند النافذة، وقد وضعت الحصاتين في راحة يدها، ناظرةً إليهما بمزيج من الافتتانِ والشكِ المرتاب والخوف. إنهما حَصاتَا كلْيةِ الآنسة أميلياً نفسها اللّتان استخرجهما منها طبيبٌ تشيساو قبل بضع سنوات. وقد كانت تجربةً مُريعةً من أولى دقيقة فيها إلى آخر دقيقة، وكان كلُّ ما جَنَتْهُ منها تَيْنِكَ الحصاتين الصغيرتين. كانت مصممةً على أن تعقد عليهما آمالاً كبرى وإلا فإن عليها أن تسلّم بصفقة فاشلة. لذلك احتفظت بهما، وفي العام الثاني من إقامة ابن الخالة لايمن معها استخدمتهما حُليًّا زيّنت بهما سلسلةَ ساعةٍ وأهدتها إياه. الشيء

Twitter: @ketab_n

الثاني الذي أضافته إلى المجموعة، ثمرة البلوط الكبيرة، كانت نفيسةً بالنسبة إليها—لكنها كلما نظرت إليها اعتلا وجهَها الغمُّ والحيرةُ.

سألها ابن الخالة لايمن: «أميليا، علامَ تدلّ؟»

أجابت: «يا إلهي، إنها مجرد ثمرة بلوط. مجرد ثمرة بلوط التقطتُها في المساء الذي مات فيه بابا الكبير.»

أصر ابن الخالة لايمن: «ماذا تعنين؟»

ردت: «أعني أنّها ثمرةُ بلوطٍ لمحتها على الأرض في ذلك اليوم. التقطتها فوضعتها في جيبي. لكني لا أعلم لماذا.»

قال ابن الخالة لايمن: «يا له من سببٍ وجيهٍ للاحتفاظ بها.»

كانت كثيرةً هي محادثاتُ الآنسة أميليا وابن الخالة لايمن في الغرف العلوية، وخاصةً في الساعات القليلة الأولى من الصباح عندما لا يستطيع الأحدب أن ينام. بصورةٍ عامة كانت الآنسةُ أميليا امرأةً صَمُوتا، لا تسمح للسانها أن ينطلقَ بجُموحٍ في أي موضوعٍ يقفز إلى ذهنها. ومع ذلك كانت هناك موضوعاتُ نقاشٍ محددةٌ تستمتع بالخوض فيها. يجمع هذه الموضوعات قاسمٌ مشتركٌ، هو أنها تكاد لا تنتهي. كانت تحب أن تُعمِل تفكيرها في مشاكلَ يمكن أن تُناقَشَ لمدة عقودٍ ومع ذلك تبقى عصيّةً على الحل. وعلى عكسها، كان ابن الخالة لايمن يستمتع بالحديث في أيّ موضوع، إذْ كان ثرثارا كبيرا. كان نهجاهما تجاه أي محادثة مختلفَيْن تماما. الآنسة أميليا دائما ما تحافظ على عموميات الموضوع العريضة غير المترابطة، وتستمر بلا نهاية في صوتٍ خفيضٍ وقورٍ دون أن تصل إلى وجهة، بينما كان ابن الخالة لايمن يقاطعها بفتةً ملتقطا، على طريقة غرابِ العقعق، تفصيلا إن لم يكن ذا أهمية فعلى الأقل ملموسٌ ويستند إلى جانبٍ عمليّ في متناول اليد. بعض الموضوعات التي كانت الآنسة أميليا

Twitter: @ketab_n

تفضّلها: النجوم، السببُ الذي جعل الزنوجَ سُودًا، خيرُ علاج للسرطان، وهلم جرّا. أبوها أيضا كان موضوعا لا نهائيا عزيزا عليها.

كانت تقول للايمن: «يا إلهي، تلك الأيام كنت أنام. أذهب إلى السرير وأنام والمصباح مازال يشتعل—يا إلهي، أنام كما لو أني أغرق في زيتِ محورِ عجلاتٍ دافئ. وبمجيء الصباح يدخل عليّ بابا الكبير ويضع يده على كتفي. يقول لي: هيا، تحركي يا صغيرتي. ثم يصيح بعد ذلك من المطبخ في اتجاه السلّم عندما يسخن الموقد. يصيح: فريك مقليّ، لحم أبيض وصلصة مرق اللحم، لحم خنزير مدخّن وبيض. وأنزل السلّم وأرتدي ملابسي أمام الموقد الساخن بينما هو في الخارج يقوم ببعض الغسيل عند المضخة. وبعد ذلك ننطلق إلى المصنع أو—»

يقول ابن الخالة لايمن: «الفريكُ الذي تناولناه هذا الصباح كان رديئا. قُلِيَ أقلّ من اللازم بحيث لم يسخن داخله.»

«وعندما أراد بابا الكبير تشغيل مقْطرة في تلك الأيام—» تستمر المحادثة إلى ما لا نهاية، في حين تمدّ الآنسة أميليا ساقيها الطويلتين أمام الموقد، فدائما ما كانت هناك نارٌ في نافذة الموقد المُشبّكة سواءً كان الوقت صيفا أم شتاء، لأنّ جسمَ لايمن باردٌ بطبيعته. يجلس في كرسي منخفض في مقابلها، تكاد لا تلامس قدماه الأرض وجذعه في العادة ملفوفٌ جيدا في بطانية أو في الشالِ القطني الأخضر. لم تذكر الآنسة أميليا أباها لأي أحدٍ أبدًا سوى ابنِ الخالة لايمن.

كانت تلك واحدةً من الطرق التي كانت تعبّر من خلالها عن حبها له. حَظِيَ بثقتها في أكثر الأمور رهافة وحيوية. وحدهُ عرف المكان الذي تحتفظ فيه بالجدول الذي يوضّح أين كانت براميلُ محددةٌ من الويسكي مدفونةً في قطعةِ أرضٍ مجاورة. وحدهُ كان مسموحا له

Twitter: @ketab_n

بالوصول إلى دفترِ شيكاتها ومفتاحِ خزانةِ التحف. كان يأخذ مالا من ماكينة الحساب، حفنات كاملة منَ النقود، ويقدّر الصلصلةَ العاليةَ التي كانت تُحدثها داخلَ جيوبه. كان يملك كل شيء تقريبا في الدار، لأنّه كلّما غضبَ أخذت الآنسة أميليا تجوس المنزل باحثةً عن هديةٍ تقدمها له—حتّى لم يبقَ هنالك شيءٌ في متناول اليد يمكن أن تعطيهُ إياه. الجزء الوحيد من حياتها الذي لم تشأ أن تُقاسمه ابن الخالة لايمن كان ذكرى زواجها الذي استمر عشرة أيام. كان مارڤن ميسي الموضوعَ الوحيدَ الذي لم يناقشه الاثنان أبدا، في أي وقت.

Twitter: @ketab_n

لندع السنوات البطيئةَ تمرّ إذن ونأتي إلى مساءِ يوم سبت في سادس سنة تمرّ منذ اللحظة التي جاء فيها ابن الخالة لأيمن للمرة الأولى إلى البلدة. كان الوقت أغسطس وكانت السماء تحترق فوق البلدة مثل شُواظٍ من نارٍ طوال اليوم. أزِفَ الغسقُ الأخضرُ وعمّ الشعور بالاسترخاء. الشارع مغطى بغبارٍ جافٍ ذهبيّ بسُمك إنش واحد، والأطفال يجُرُّون نصفَ عراة، يعطسون كثيرا، يعرقون، في عبوس. أقفل المصنع عند الظهيرة. جلس الناس في المنازل على جانبي الشارع الرئيس مسترخين على عتبات الأبواب وأخذت النساء يهففن بمراوح البلميط. في منزل الآنسة أميليا كانت هناك لوحةٌ أمام الدار كُتب عليها: «مقهى». كانت الشرفةُ الخلفيةُ باردةً بسبب الظلال المشبّكة وفيها جلس ابن الخالة لايمن يدير ثلاجة الآيسكريم — غالبا ما كان يُفرغ الملح والثلج وينزع الغَطّاس ليلحس منه قليلا ويرى كيف أتى جهده. جيف يطهو طعاما في المطبخ. وقد وضعت الآنسة أميليا في وقت باكر من ذلك الصباح إعلانا على جدار الشرفة الأمامية يقول: عشاء دجاج — عشرون سنتا الليلة. كان المقهى مفتوحا من قبلُ وكانت الآنسة أميليا قد انتهت للتو من جلسة عمل في مكتبها. شُغِلتْ كل الطاولات الثماني وانسابت من البيانو نغمةٌ مجلجلة.

كان هنري ميسي في زاوية قُرْبَ الباب جالسًا على طاولة مع طفل. كان يحتسي زجاجةً من الخمر، الأمر الذي لم يكن عاديًا بالنسبة إليه، لأن الشرابَ يصعد إلى رأسه بسهولة ويدفعه إمّا إلى البكاء أو

Twitter: @ketab_n

إلى الفناء. كان وجهُه شديدَ الشُّحُوب وعينُه اليسرى تطرف باستمرار في عُرّة عصبية تعاوده كلما كان منفعلا. دخل المقهى خلسةً وبصمت وعندما حُيّي لم يتحدث. الطفل المجاور له كان ابنًا لهوراس ويلز، وقد تُرك في منزل الآنسة أميليا ذلك الصباح ليُطبَّب.

خرجت الآنسة أميليا من مكتبها بمعنويات مرتفعة. اعتنت ببعض التفاصيل في المطبخ ودخلت المقهى بعَجُز دجاجة بين أصابعها، إذ كان ذلك جزءَها المفضّل من الدجاجة. أجالت بصرها في الغرفة ورأت أن كلَّ شيء عموما على ما يرام، فذهبت إلى طاولة الزاوية حيث هنري ميسي. لفّت الكرسيَّ وجلست ممتطيةً ظهره لأنها لم تكن تريد إلا أن تُزجي وقتَ النهار ولم تكن مستعدةً بعدُ لتناول عشائها. كان في جيب بنطالها الشيال قنينة دواءِ الخُنّاق، وهو عبارة عن دواء محضَّر من الويسكي وحلوى الصخر وعنصرٍ آخرَ سريّ. فتحت الآنسة أمليا سدادة القنينة ووضعتها في فم الطفل. بعد ذلك التفتت إلى هنري ميسي وسألته وقد لاحظت غمزاتِ عينه اليسرى العصبية:

«ما الذي يوجعك؟»

بدا هنري ميسي على وشك أن يقول شيئا عسيرا ولكنه بعد أن حدق طويلا في عيني الآنسة أميليا بلع ريقه ولم يتحدث.

عادت الآنسة أميليا إذن إلى مريضها. لم يَبِنْ من الطفل من وراء الطاولة سوى رأسه. كان وجهه محمرّا وجفناه مرتخيين والفم منفرجا، وعلى فخذه دُمَّلةٌ كبيرةٌ وصلبةٌ ومنتفخةٌ، جيء به إلى الآنسة أميليا كيما تبعجَها. بَيْد أن الآنسة أميليا كانت تستخدم طريقةً خاصةً في تطبيب الأطفال. لم تكن تحبّ أن تراهم يتألمون أو يعانون أو يذعرون. ولذلك كانت تحتفظ بالطفل حول الدار طوال اليوم، تعطيه عِرقَ السوس وجرعاتٍ متكررة من دواءِ الخُنّاق، وبحلول المساء تربط

Twitter: @ketab_n

حول رقبته مَحرمةً وتدعه يأكل نصيبه من العشاء. والآن في الوقت الذي جلس فيه إلى الطاولة ترنح رأسُه من جانب إلى جانب وبين الفينة والأخرى يصدر منه، حين يتنفس، نخيرٌ منهَك.

كانت هناك ضجةٌ مفاجئةٌ في المقهى فنظرت الآنسة أميليا حولها بسرعة. دخل ابن الخالة لايمن. مشى الأحدب متبخترا في المقهى كما كان يفعل كل ليلة، وعندما بلغ منتصف الغرفة تماما توقف بغتةً ونظر بدهاء إلى ما حوله، مستدعيا الناس ومبتكرا نسقا سريعا من الانفعالات المتاحة تلك الليلة. كان الأحدب بارعا في إثارة الفوضى. يستمتع بأي شكلٍ من أشكال الشغب، ويستطيع من دون أن يتفوه بكلمة واحدة أن يحرّض الناسَ بعضَهم ضد بعض بأسلوب أعجوبي. بسببه نشب شجارٌ بين التوأمين ريني حول مِطْواة قبل سنتين، فلم يتفوّه أحدٌ منهما إلى الآخر بكلمة واحدة منذ تلك الحادثة. كان حاضرا أثناء العراك الكبير بين ريب ويلبورن وروبرت كالڤرت هيل، إضافة إلى كل عراك آخرَ منذ قدومه إلى البلدة. حشر أنفَه في كل مكان، واطّلع على الشؤون الحميمية للجميع، وتعدّى على ممتلكات الغير كلما عنّ له الأمر. مع ذلك، وبطريقة غريبة، كان الأحدبُ المسؤولَ الأولَ عن شعبية المقهى العريضة. ولم تكن الأمور أبدا بالبهجة نفسها التي كانت بها عندما كان في المكان. كان كلما دخل الغرفةَ ظهر شعورٌ سريعٌ بالتوتر، فلا أحد يمكن أن يتنبّأ مع وجود هذا الفضوليّ بالقرب منه بما قد يحلّ به، أو بما يمكن أن يُحدثه فجأةً دخولُه الغرفة. لم يكن الناس معه في كامل حريتهم وكانوا جذلين بتهوّر وكأنما هناك احتمالية لوقوع اضطراب أو كارثة. لذلك عندما تقدّم الأحدب إلى منتصف المقهى سَلَقَهُ الجميعُ بنظراتهم ثم حدثت فورةٌ سريعةٌ من الحديث وفتحِ سداداتِ القناني.

Twitter: @ketab_n

لوّح لايمن بيده لماكفيل البدين الذي كان جالسا مع ميرلي راين وهنري فورد كريمب. قال: «مشيتُ اليومَ إلى البحيرة الآسنة لاصطياد السمك. وفي طريقي وَطِأْتُ ما بدا لي في البدء جذعَ شجرة ساقطة. لكن بعد ذلك عندما وطأته أحسست بشيء يتحرك ولمّا ألقيت عليه نظرة ثانية وجدتُني أمتطي تمساحا طوله كما لو أنه يمتد من الباب الأمامي إلى المطبخ وأكثر سُمكًا من خنزير.»

استمر الأحدب في ثرثرته. وكان الجميع ينظرون إليه من وقت إلى آخر، تابع بعضهم ثرثرته وتجاهلها البعض الآخر. كانت تمرّ أوقاتٌ لم تكن فيها أيّ كلمة يقولها سوى تبجُّح وأكاذيب. لم يكن شيءٌ مما قاله الليلةَ صحيحا. لقد اضطجع طوال اليوم في السرير بسبب لُوازٍ صديديّ صيفيٍّ ولم يقُم إلاّ بعد الزوال من أجل أن يدير ثلاجةَ الآيسكريم. كان الجميع يعرفون هذا، ومع ذلك وقف هناك في منتصف المقهى وأسهب في أكاذيبَ ومفاخرات كهذه من شأنها أن تصمّ الأذن.

راقبته الآنسةُ أميليا واضعةً يديها في جيبيها ومُشيحةً بوجهها. كان في عينيها الرماديتين الغريبتين طراوةٌ وكانت تتبسّم لنفسها بلطف. بين الفينة والأخرى تأخذ بصرَها من الأحدب إلى الآخرين في المقهى—كانت نظرتها فخورةً، وفيها إلماحٌ إلى التهديد، وكأنما تتحدى أن يجرؤَ أحدٌ أن يحاسبه على كل حماقاته. كان جيف يحضّر أطباق العشاء التي كان قد بُدئ في تقديمها على الصحون، وأثارت مراوحُ المقهى الكهربائيةُ الجديدةُ برودةً ساحرةً في الجو.

قال هنري ميسي أخيرا: «الطفل الصغير نائم.»

نظرت الآنسة أميليا إلى المريض بجوارها، وشكّلت وجهها حسب الموضوع الذي بين يديها. كانت ذقنُ الطفل ترتاح على حافة الطاولة

Twitter: @ketab_n

وقد زبّدت قطرةٌ من اللعابِ أو دواءِ الخُنّاق على ركن فمه. وكانت عيناه مطبقتين تماما وقد اجتمعت عائلةٌ صغيرةٌ من البَرْغَش بسلام في رُكنيهما. وضعت الآنسةُ أميليا يدَها على رأسه وهزّته بفظاظة لكنّ المريض لم يصْحُ. لذا رفعت الآنسة أميليا الطفلَ من الطاولة، وهي تُحاذِر أن تمسّ الجزءَ الملتهبَ من ساقه، ثم ذهبت إلى المكتب. لحقها هنري ميسي فأغلقا باب المكتب.

شعر ابن الخالة لايمن بالسأم في ذلك المساء. لم يحدث هناك الكثير، وكان الناس في المقهى ودودين رغم الحرارة. جلس هنري فورد كريمب وهوراس ويلز في الطاولة الوسطى يلفّ كلٌّ منهما ذراعه حول صاحبه، يضحكان على نكتة طويلة، لكنه حين دنا منهما لم يستطع أن يفهم منها شيئا لأن بدايةَ القصةِ قد فاتتْه. أنار ضوءُ القمرِ الطريقَ المغبر، وكانت شجيراتُ الدراقِ القزمةُ داكنةً وساكنةً إذ لم يكن هناك نسيم. الطنين الناعس لبعوض المستنقع كان مثل صدًى لتلك اللّيلةِ الصامتة. بدت البلدةُ مظلمةً، ما عدا خفقة مصباح آخر الطريق على اليمين. في مكانٍ ما في الظلام كانت امرأةٌ تغني بصوتٍ عالٍ ومسعورٍ ولم تكن للّحنِ بدايةٌ أو نهايةٌ. كان مؤلفا من ثلاث نغماتٍ فقط واستمر من دون انقطاع. وقف الأحدبُ متكئا على درابزين الشرفة، مرسلا بصره إلى امتداد الطريق الفارغ كما لو أنه يأمل أن يأتي من نهايته أحد.

جاءت من خلفه خطواتٌ، ثم صوت: «ابن الخالة لايمن، عشاؤك وُضع على الطاولة.»

قال الأحدب الذي ظلّ يتناول السعوط الحلو طوال اليوم: «شهيتي ليست مفتوحة الليلة. في فمي حموضةٌ.»

قالت الآنسة أميليا: «لقمتان فقط. الصدر، والكبد، والقلب.»

Twitter: @ketab_n

عادا معا إلى المقهى الساطع وجلسا مع هنري ميسي. كان طاولتهم كبرى طاولات المقهى، وكانت فوقها باقةٌ من زنابقِ المستنقع موضوعة في علبةِ كوكا كولا. انتهت الآنسة أميليا من مريضها وقنعت بما حققته. من خلف باب المكتب المغلق جاءت أنّاتٌ ناعسةٌ قليلة، وقبل أن يستيقظ المريض ويصاب بالهلع تماثل للشفاء. كان الطفل مُلقًى على كتف والده، يغطّ في نوم عميق، تتدلى يداه الصغيرتان على ظهر والده ووجهه متورم شديد الاحمرار—كانا مغادرين المقهى عائدين إلى المنزل.

كان هنري ميسي لا يزال صامتا. أكل بعناية، من دون أن يصدر صوتا وهو يبلع طعامه، ولم يكن بثُلث شراهة ابن الخالة لايمن الذي ادّعى أن شهيته غير مفتوحة ويزدرد الآن عشاءه لقمةً خلفَ لقمة. من حينٍ إلى آخر كان هنري ميسي يعبُر بنظره إلى الآنسة أميليا ويحتفظ بهدوئه.

كانت ليلة سبت نموذجية في عاديّتها. عند مدخل الباب تردّد زوجان عجوزان جاءا من الريف، وكلٌّ منهما يمسك بيد الآخر، وأخيرا قررا الدخول. عاش هذا الزوجان الريفيّان العجوزان معا لوقت طويل بحيث أمسيا مُتشابهين وكأنهما توأمان. كانا داكني السّحنة وذابلين، مثل حبّتَي فولٍ سوداني صغيرتين تمشيان. رحلا مبكرا وبحلول منتصف الليل كان أغلب الزبائن الآخرين قد غادروا. ما زال روسر كلاين وميرلي راين يلعبان الدّاما وماكفيل البدين جالسا مع قارورة خمرٍ على طاولته (زوجته لا تسمح بمعاقرة الخمر في المنزل) ومنغمسا في محادثات سلمية مع نفسه. لم يكن هنري ميسي قد غادر، وهذا أمر غير مألوفٍ، إذ طالما كان يأوي إلى فراشه سريعا بعد حلول الظلام. تثاءبت الآنسة أميليا بخمول، لكن لايمن كان قلقا، فلم تقترح

Twitter: @ketab_n

أن يُنهيا السمر.

أخيرا، عند الساعة الواحدة، رفع هنري ميسي بصره إلى ركن السقف وقال للآنسة أميليا بهدوء: «وصلتني رسالةٌ اليوم.»

لم تكن الآنسة أميليا مَن يؤثّر فيها كلامٌ كهذا، لأن كل أشكال رسائل الأعمال والفهارس تأتي إلى عنوانها.

أضاف هنري:«وصلتني رسالةٌ من أخي».

فجأةً توقف الأحدب الذي كان يمشي في المطبخ بخطواتٍ أوزّة وهو يشبك يديه خلف رأسه. كان سريعا في استشعارِ أي تغيّرٍ في الجو العام لأي اجتماع. ألقى نظرةً على كل الوجوه في الغرفة وانتظر.

عبست الآنسة أميليا وكوّرت قبضة يدها اليمنى، ثم قالت: «هات ما عندك!»

«لقد مُنح إطلاقَ سراحٍ مشروط. خرج من السجن.»

امتقع وجهُ الآنسة أميليا وارتجفت على الرغم من أنّ الليل كان دافئا. دفع ماكفيل البدين وميرلي راين لعبةَ الداما جانبا. ورانَ على المقهى سكونٌ عميق.

«مَن؟» سأل ابن الخالة لايمن. بدا أن أذنيه الكبيرتين الشاحبتين كبُرَتا في رأسه وتيبّستا. «ماذا؟»

صفقت الآنسة أميليا باطنَ كفّيها على الطاولة. «لأن مارڤن ميسي—» لكن صوتها اخشوشن وبعد لحظات قليلة لم تزِدْ غير: «إنه ينتمي إلى السجن باقي حياته.»

سأل ابن الخالة لايمن: «ما الذي فعل؟»

ساد صمتٌ مطوّل، إذ لم يعرف أحدٌ كيف يجيب بدقةٍ عن هذا السؤال. قال ماكفيل البدين: «سرق ثلاث محطات وقود،» لكن كلماته

Twitter: @ketab_n

لم تبدُ مكتملةً وكان هناك إحساسٌ بذنوبٍ تُركت دون ذكر.

عِيلَ صبرُ الأحدب. لم يحتمل أن يكون مستبعَدا من أي شيء، بما في ذلك الشقاء الكبير لأحدهم. كان اسم مارڤن ميسي مجهولا بالنسبة إليه، لكنه عذّبه كما يعذّبه ذكرُ أي موضوعٍ يعرف عنه الآخرون ويجهله هو—مثل أي إشارةٍ إلى مِنْشَرةِ الخشبِ التي قُوّضت قبل مجيئه أو كلمةٍ عَرَضية عن موريس فاينستاين المسكين، أو تذكّر أي حدثٍ وقع قبل مقدمه إلى البلدة. علاوةً على هذا الفضولِ الذي جُبل عليه، كان الأحدب يهتم اهتماما فائقا باللصوصِ والجرائم من كل الأصناف. بينما كان يمشي متبخترا حول الطاولة كان يتمتَم لنفسه بالكلمات التالية: «مُنح إطلاقُ سراحٍ مشروط» و «السجن.» لكن على الرغم من أنه ألحّ في الاستفسارِ، لم يُنجح في العثور على شيء أبدا، إذ لم يجرؤ أحدٌ على الحديثِ عن مارڤن ميسي في حضرةِ الآنسة أميليا في المقهى.

قال هنري ميسي: «لم تَقُلِ الرسالة شيئا كثيرا. لم يذكرْ إلى أين سيذهب.»

قالت الآنسة أميليا، ووجهها لا يزال قاسيا ومكفهرا: «أفّ! لن يضع حافرَه المشقوق في حِماي أبدا.»

دفعت إلى الوراء كرسيَّها عن الطاولة، واستعدت لإقفال المقهى. ربما دفَعَها التفكيرُ في مارڤن ميسي إلى حالةٍ من الاكتئاب، إذ سحبتْ ماكينة الحساب إلى المطبخ من جديد ووضعتها في مكان خاص. غادر هنري ميسي وتلقّفه الطريقُ المعتم. لكن هنري فورد كريمپ وميرلي راين تسكعا لبعض الوقت في الشرفة الأمامية. لاحقا ظهر ميرلي راين بادّعاءات معينة، وحلف أنه يحمل في تلك الليلة تصوّرا بما سيأتي. لكن البلدة لم تُعِرْه اهتماما، لأن ذلك النوع من الادعاءات هو ما كان معتادا أن يجيء به ميرلي راين. تحدثت الآنسة أميليا وابن الخالة

Twitter: @ketab_n

لايمن لبعض الوقت في الردهة. وعندما ظنّ الأحدب في الأخير أنه يستطيع أن ينام قامت بنصبِ الناموسيّة فوق سريره وانتظرت حتى انتهى من صلواته. ثم ارتدت جلبابَ نومِها الطويل، ودخّنت في الغليون مرتين، ولم تذهب إلى النوم إلا بعد وقت طويل.

Twitter: @ketab_n

كان الخريف وقتًا سعيدًا. جادت المحاصيلُ في الريف، وظل سعرُ التبغ في سوقِ شلالات فوركس ثابتًا تلك السنة. بعد الصيف الطويل الحار أصبحت للأيام الباردة الأولى عذوبةٌ صافيةٌ ومشرقة. نما الأقحوان الذهبي على حوافّ الطرقِ المغبرة وغدا قصبُ السكرِ ناضجا وأرجوانيا. كان الباص يأتي من تشيساو يوميا ليحمل بضعَ أطفالٍ صغارٍ إلى المدرسة المُدمجة ليتلقوا تعليمهم. وكان الأطفال يصيدون الثعالب في غابة الصنوبر، ولحفُ الشتاءِ منشورة في الخارج على حبال الغسيل، والبطاطا الحلوة مدفونة في الأرض مع القش تهيؤا للأشهر الباردة المقبلة. في المساء ترتفع من المداخن مِزَقٌ دقيقةٌ من الدخان، ويغدو القمر مستديرا وبرتقاليا في سماء الخريف. ليس هناك سكونٌ مثل هدوءِ طلائع الخريف من الليالي الباردة. أحيانا في الليل عندما لا تكون هناك رياحٌ يمكنُ لأهل البلدة سماعُ الصافرةِ الجافةِ الضعيفةِ للقطار الذي يعبر مدينة المجتمع في طريقه الطويل إلى الشمال.

بالنسبة إلى الآنسة أميليا إيڤانز كان هذا الوقتَ الملائمَ لكثير من النشاط. كانت تعمل من الفجر حتى غروب الشمس. صنعت لمقطرتها مُكثّفا بُخاريا جديدا أوسع، وفي غُضون أسبوع واحد قطّرت من الخمر ما يكفي لأن يغرق المقاطعة كلها. أصيب بغلُهاً الهرم بالدُّوار من جرّاء طحنِ كثيرٍ من الذرة، وعقّمت بالماء الساخن جِرارها وخَزَنَت عُلبَ مربى الكمثرى. كانت تتطلع بحماسٍ إلى طلائع الصقيع لأنها حصلت

Twitter: @ketab_n

مقايضةً على ثلاثة خنازير سِمان، وكانت تنوي إعداد كثيرٍ من الشواء والنقانق والسجق.

خلال هذه الأسابيع بدت على الآنسة أميليا سمةٌ لاحظها كثيرون. كانت كثيرا ما تضحك، ضحكة عميقة مجلجلة، وكان لصفيرها تحايلٌ وقعٌ ومُدَوْزَن. وكانت تختبر قوتها باستمرار، ترفع أشياء ثقيلة أو تلكز بإصبعها عضلات ذراعيها الصلبة. وذات يوم جلست أمام آلتها الكاتبة وكتبت قصة—قصةً فيها غرباء، أبوابٌ مَصائد، وملايين الدولارات. كان ابن الخالة لايمن معها على الدوام، يتمشى خلف أذيال معطفها، وعندما كانت تراقبه تعلو وجهها نظرةٌ مشرقةٌ ناعمة، وعندما كانت تنطق اسمه تتوانى في صوتها نبرةُ حبّ خفيّة.

جاءت أولى موجات البرد أخيرا. عندما استيقظت الآنسة أميليا ذات صباح كانت زهراتُ الصقيع على ألواح النوافذ، وكان الصقيع قد صبغ بالفضيّ بُقعَ العشبِ في الفناء. أوقدت الآنسة أميليا نارا هادرة في موقد المطبخ ثم ذهبت إلى الخارج لتتفقد الطقس. كان الهواءُ باردا وحادا، واتسمت السماء الخالية من السحب بخضرة شاحبة. بعد ذلك بقليلٍ توافد الناس من الريف ليعرفوا رأيَ الآنسة أميليا في الطقس. قررت أن تذبح أسمنَ الخنازيرِ، فانتشر الخبر في الريف انتشار النار في الهشيم. ذُبح الخنزيرُ وأشعلت نارٌ هادئة من حطب البلوط في حُفرة الشواء. فاحت رائحةُ دم الخنزيرِ الدافئة وارتفع في الفناء الخلفي الدخانُ، ووقعُ الخطى، ورنَينُ الأصوات في هواء الشتاء. كانت الآنسة أميليا تعطي الأوامر وهي تمشي في المكان وسرعان ما انتهى معظم العمل.

كان لديها مهمةٌ خاصةٌ تقوم بها في تشيساو في ذلك اليوم، ولذا بعد أن تأكدت من أن كلَّ شيء يسير على ما يرام أدارت سيارتها واستعدت

Twitter: @ketab_n

للمغادرة. طلبت من ابن الخالة لايمن أن يرافقها، في الواقع كررت الطلب سبعَ مرات، لكنه كَره أن يغادر الضوضاءَ فاختار البقاء. أزعج إصرارُه الآنسةَ أميليا لأنها دائما ما أرادت أن يكون بجوارها وكانت عُرضةً للشعورِ الفظيع بالحنين كلما اضطرت للابتعاد أية مسافة عن البلدة. لكن بعد تكرارَ الطلب عليه سبع مرات، لم تلحّ عليه أكثر. قبل المغادرة وجدت عصا فرسمتْ خطا عريضا طوّقت به حفرة الشواء، دائرة بقُطر قدمين، وأمرته ألا يخطو أبعد من ذلك الحد. غادرت بعد العشاء وكانت تنوي أن تعود قبل حلول الظلام.

ليس من النادر أن تعبر شاحنةٌ أو سيارةٌ الطريقَ وتشق البلدة في طريقها من تشيساو إلى مكان آخر. ففي كل عام يأتي مُحصّل الضرائب ليتجادل مع الأغنياءِ من أمثال الآنسة أميليا. وإنْ أراد فجأة أحدٌ من المدينة، مثل ميرلي راين، أن يتواطأ ليحصل على سيارة دَيْنا أو أن يدفع مُقدَّما ثلاثةَ دولارات مقابل برّادٍ إليكتروني ممتازٍ مثل تلك التي تُرى إعلاناتها على نوافذ المتاجر في تشيساو، فسيأتي رجلٌ من المدينة ليطرح أسئلةً فضوليةً، مكتشفا كل مشاكله، ومدمّرا كل فرصه في اقتناء أي شيء بالتقسيط. أحيانا، ولا سيّما منذ الشروع في تعبيد طريق شلالات فوركس السريع، تمر السياراتُ التي تنقل العصابةَ المصفَّدة بالمدينة. وباستمرارٍ يتوه سائقو السيارات ويتوقفون للسؤال عن كيفية العثور على الطريق الصحيح من جديد. لذلك لم يكن غريبا مساءَ ذلك اليوم أن تتجاوز شاحنةٌ مصنعَ القطنِ وتتوقف في وسط الطريق قريبا من مقهى الآنسة أميليا. وثبَ من ظهر الشاحنة رجلٌ ثم مضت الشاحنةُ في طريقها.

وقف الرجل في منتصف الطريق وجال ببصره في المكان من حوله. كان رجلا طويلا، بشعرٍ بُنّيٍ أجعد، وعينين بليدتين شديدتي الزرقة.

Twitter: @ketab_n

كانت شفتاه حمراوين وابتسم ابتسامةَ المتبجّح، ابتسامةً كَسْلى وغيرَ مكتملة. كان الرجل يرتدي قميصا أحمر وحزاما عريضا من الجلد المزخرف، ويحمل حقيبةً من الصفيح وقيثارة. ابن الخالة لايمن هو أولُ من رأى الوافدَ إلى البلدة، حين سمع صوتَ تغييرِ ناقلِ السرعة فخرج ليتبيّن الأمر. أخرج الأحدبُ رأسه من ركن الشرفة لكنه لم يخرج بطريقةٍ تجعله مرئيًّا بالكامل. تبادل هو والرجلُ التحديق، ولم تكن نظرةَ غريبين يلتقيان للمرة الأولى ويقيّم كل منهما الآخر بشكل خاطف. كان تحديقا مميزا ذلك الذي تبادلاه، يشبه نظرةَ مجرمَيْنِ يتعارفان. ثم هزّ الرجل ذو القميص الأحمر كتفه الأيسر وانصرف. كان وجه الأحدب شاحبا جدا وهو يشاهد الرجل يسلك الطريق مبتعدا، وبعد لحظات قليلة بدأ يتبعه بحذر، مُبقيا على عدةِ خطواتٍ بينهما.

سريعا عرف أهل البلدة كلها أن مارڤن ميسي قد عاد من جديد. في البداية ذهب إلى المصنع، أسند مرفقيه بكسل إلى عتبةِ نافذةٍ ونظر إلى الداخل. كان يحب مشاهدة الآخرين وهم يجدّون في العملِ، شأنه في ذلك شأن جميع الكسالى بالفطرة. أخذت الناسَ في المصنع حيرةٌ شلّت حركتَه. غادر الصبّاغون الأحواضَ الساخنة، ونسي النسّاجون والحاكَةُ آلاتهم، وحتّى ماكفيل البدين الذي يعمل مشرفا على العمال، لم يعرف بالضبط كيف عليه أن يتصرف. كان مارڤن ميسي لا يزال يبتسم ابتساماته الرطبة غير المكتملة، ولم يتغير تعبيره المتبجّح عندما رأى أخاه. بعد أن ألقى نظرة على المصنع سلك الطريق إلى المنزل الذي نشأ فيه، وترك حقيبةَ الصفيح وقيثارتَه في الشرفة الأمامية. ثم تمشى حول بِرْكَةِ الطاحونة وتفقّدَ الكنيسة والمتاجر الثلاث وبقية البلدة. خلفه كان يمشي الأحدب متثاقلا وبهدوء محافظا على بعض

Twitter: @ketab_n

المسافة، يداه في جيبيه، ووجهه الصغير لا يزال شاحبا.

تأخر الوقت. كانت شمس الشتاء الحمراء في أُفُول، وإلى جهة الغرب كان للسماء لونٌ ذهبيٌّ مشبعٌ وقرمزي. طار سربٌ متفككٌ من طيور السَّمَام إلى أوكاره، وأضيئت المصابيح. بين الحين والآخر كانت تنبعث رائحة الدخان، والرائحة الغنية الدافئة للشواء وهو ينضج ببطء في الحفرة خلف المقهى. بعد أن أنجز مارڤن ميسي جولته حول البلدة توقف أمام حِمى الآنسة أميليا وقرأ اللافتة فوق الشرفة. ثم عبر الفناء الجانبي من دون أن يتردد ثانيةً في تخطّي الحِمى. أطلقت صفارةُ المصنع صفرةً هزيلةً وحيدة، فانتهت مناوبةُ العمل اليومية. وما لبث أن جاء آخرون إلى فناء الآنسة أميليا الخلفي إضافة إلى مارڤن ميسي—هنري فورد كريمپ، ميرلي راين، ماكفيل البدين، وعدد من الأطفال والناس الذي وقفوا حول أطراف الدار وظلّوا يراقبون. ما قيلَ إلا القليل. وقف مارڤن ميسي وحده عند جانبٍ من الحفرة واحتشد بقيةُ الناس معا عند الجانب الآخر. أما ابن الخالة لايمن فوقف بمعزلٍ عن الجميع بعض الشيء، ولم يرفع عينيه عن وجه مارڤن ميسي.

سأل ميرلي راين، مُرفقا سؤاله بضحكةٍ سخيفة: «هل استمتعتَ بوقتك في السجن؟»

لم يُجب مارڤن ميسي. أخذ من جيبه سكينا كبيرة، فتحها ببطء، وأخذ يشحذ شفرتَها على طرفِ بنطاله. صمت ميرلي راين فجأة وذهب ليقف مباشرةً خلف ظهر ماكفيل البدين العريض.

Twitter: @ketab_n

لم تعد الآنسة أميليا حتى أوشك الظلام أن يحل. سُمعت خشخشةُ سيارتها بينما كانت لا تزال على بُعد مسافة طويلة، ثم صفقةُ الباب وصوتُ ارتطام كما لو أنها كانت تجرّ شيئا ما إلى الدرج الأمامي لبيتها. كان الشمس قد غربت حينها، وكان في الجو الوهجُ الأزرقُ الدخانيُّ لبداية الأماسي الشتوية. نزلت الآنسة أميليا الدرجَ الخلفي ببطء، وانتظر الحشدُ في فنائها في صمت مُطبق. قلةٌ في هذا العالم يستطيعون أن يواجهوا الآنسة أميليا التي كانت تشعر تجاه مارڤن ميسي بذلك الحقد الخاص المرير. انتظر الجميع أن يشاهدوها تنفجر في صرخة مُريعة، أن تلتقط أشياءَ خطيرةً وتطرده من البلدة نهائيا. في البداية لم تَرَ مارڤن ميسي، وعلا وجهَها التعبيرُ المرتاحُ والحالمُ الذي كان طبيعيا بالنسبة إليها عندما تصل إلى البيت بعد الذهاب مسافة طويلة بعيدا عنه.

لا بد أن الآنسة أميليا رأت مارڤن ميسي وابن الخالة لايمن في اللحظة نفسها. نظرت من واحد إلى الآخر، لكن لم يكن متشردُ السجنِ مَن ثبّتت عليه نظرةَ الذهولِ العليل. كانت، مثل الجميع، تنظر إلى ابنِ الخالة لايمن الذي كان فُرجةً للمتفرج.

وقف الأحدب عند نهاية الحفرة، يضيء وجهَه الشاحبَ الوهجُ الناعمُ من نار البلوط المستكينة. كان لابن الخالة لايمن امتيازٌ فذٌ يستخدمه كلما رغب في أن يتملقَ أحدَهم. يقف في ثبات وبقليل من التركيز يهزهز أذنيه الكبيرتين الشاحبتين بسرعةٍ وسهولةٍ مدهشتين.

Twitter: @ketab_n

كثيرًا ما يستعين بهذه الحيلة عندما يبتغي الحصول على شيء مميز من الآنسة أميليا، وكان الأمر بالنسبة إليها شيئا لا يقاوم. الآن وهو يقف هناك كانت أذناه ترفرفان بتمرّدٍ في رأسه، لكنه لم يكن ينظر إلى الآنسة أميليا هذه المرة، بل يبتسم لمارڤن ميسي بتوسلٍ يقترب من اليأس. في البداية لم يُعِرْه مارڤن ميسي اهتماما، وعندما نظر أخيرا إلى الأحدب خَلَت نظرته من أي احترام إطلاقا.

سأل، بحركة سريعةٍ وفظةٍ من إبهامه: «ما الذي يُوجِع مكسورَ الظهرِ هذا؟»

لم يُجب أحد. وإذ رأى ابن الخالة لايمن أن امتيازه لم يأخذه بعيدا أضاف جهودا إقناعية جديدة. هزهز جفنيه بحيث أصبحا مثل فراشتي عُثّ باهتتين محبوستين في مَحْجَرَيْ عينيه. فرك قدميه ببعضهما على الأرض، لوّح بيديه في الهواء، وأخيرا شرع في القيام برقصةٍ صغيرةٍ مثل الهرولة. في آخر رمقٍ لضوء الشتاء الموحش كان يشبه طفلا في حفلة مطاردة أشباح.

مارڤن ميسي، وحده من بين كل الناس في الفناء، لم تُثِرْ إعجابَه حركاتُ الأحدب.

سأل: «هل القزم غاضب؟» ولمّا لم يُجب أحدٌ تقدم خطوةً إلى الأمام وصفع ابن الخالة لايمن على جانب رأسه. ترنح الأحدب ثم سقط أرضا على ظهره. جلس حيث سقط، لا يزال ينظر أعلاه إلى مارڤن ميسي، وبكثير من الجهد تمكنت أذناه من خفقةٍ بائسةٍ أخيرة.

الآن التفت الجميع إلى الآنسة أميليا ليروا ماذا هي فاعلة. في كل تلك السنين لم يمسّ أحدٌ شعرةً في رأس ابن الخالة لايمن، على الرغم من أنّ كثيرين كانت لديهم رغبةٌ في القيام بذلك. بل لو تحدث أحدٌ بغضبٍ إلى الأحدب فإن الآنسة أميليا تتوقف عن إقراض هذا الهالك

Twitter: @ketab_n

المجازف وتجد طُرُقًا في التضييق عليه وقتا طويلا بعد ذلك. إذن الآن لو فلقتْ بفأس رأسَ مارڤن ميسي نصفين في الشرفة الخلفية فلن يفاجئ ذلك أحدا. لكنها لم تقم بأي شيء من هذا القبيل.

مرت أوقاتٌ بدا فيها أنّ الآنسة أميليا تدخل في نشوة. وكان سبب تلك الحالات من النشوة في العادة معروفا ومفهوما. لأن الآنسة أميليا طبيبةٌ ماهرةٌ، ولم تكن تطحن جذورَ نباتاتِ المستنقع والعناصر الأخرى غير المجرَّبة وتعطيها أولَ مريض يدخل عليها. كانت كلما اخترعت دواءً جديدا تجرّبه على نفسها أولًا. تبلع جرعةً كبيرةً وتقضي اليوم التالي تمشي متأملةً جيئةً وذهابا بين المقهى ومرحاض الطوب. وغالبا عندما تأتيها نوبةُ وجع حادٍ مفاجئ فإنها تجمد في مكانها، تحدق عيناها الغريبتان إلى الأرضِ في الأسفل وقبضتاها مطبقتان. كانت تحاول أن تحدّد أي عضوٍ في جسمها يتعرض لتأثير الدواء، وأي ألم يرجحُ أن الدواء الجديد يعالجه. والآن بينما هي تشاهد الأحدب ومارڤن ميسي، علا قسماتِ وجهها التعبيرُ نفسه، فبدت متوترة وكأنّها تحاول أن تُدرك ألمًا داخليًا، على الرغم من أنّها لم تأخذ أي علاجٍ جديدٍ في ذلك اليوم.

قال مارڤن ميسي: «ستربّيك هذه يا مكسور الظهر.»

سرّح هنري ميسي شعره الأشيب الضعيف إلى الوراء بعيدا عن جبهته وسعل بعصبية. حرّك ماكفيل البدين وميرلي راين قدميهما في ارتباك، ولم ينطق أحد من الأطفال والسود الواقفين على حواف الدار بشيء. طوى مارڤن ميسي السكين التي كان يشحذها، وبعد أن نظر إلى ما حوله من دون خوفٍ غادر الفناءَ مختالا. استحال الجمرُ في الحفرة رمادا أشهب ريشيًا وحلّ الظلام.

Twitter: @ketab_n

هكذا كانت الطريقة التي عاد بها مارڤن ميسي من السجن. لم يسعد برؤيته مخلوقٌ في البلدة كلّها. حتى السيدة ميري هيل التي كانت امرأةً صالحةً وربّته بحبٍ ورعاية، حتى هذه الأم التي تبنّته لدى رؤيته أول مرة أسقطت من يدها المقلاةَ التي كانت تحملها وانفجرت باكية. لكن، لا شيء كان يرعب مارڤن ميسي ذاك. جلس على الدرجِ الخلفيّ لمنزل السيدة هيل، يعزف بكسلٍ على قيثارته، وعندما يصبحَ العشاء جاهزا يدفع أطفالَ البيتِ بعيداً عن طريقه ويغرف لنفسه من الطعام وجبةً كبيرة، على الرغم من أنه لم يكن هناك كثيرٌ من كعك طحين الذرة واللحم الأبيض. وبعد الأكل يمكّن نفسه من أفضل الأمكنةَ وأكثرها دفئًا للنوم في الغرفة الأمامية ولم تقلق نومَه أية أحلام.

لم تفتح الآنسة أميليا المقهى في تلك الليلة. أوصدت الأبواب وجميعَ النوافذ بعناية، ولم تُر هي وابن الخالة لايمن، فيما ظلّ المصباح داخل غرفتها يشتعل طوال الليل.

منذ البداية جلب مارڤن ميسي معه النحسَ كما كان متوقعا. في اليوم التالي تحول الطقسُ فجأةً وأصبح حارا. حتى في بداية الصباح كانت هناك حرارةٌ دبقةٌ في الهواء، وحملت الرياحُ الرائحةَ المتعفنةَ للمستنقع، ودوّى البعوضُ مثل شبكة رهيفة فوق بركة الطاحونة الخضراء. كانت حرارةً في غير أوانها، أسوأ من لهيب أغسطس، وسببت كثيرا من الأذى. لأنّ جميع من يمتلك خنزيرا في المقاطعة تقريبا قلّد الآنسة أميليا وذبحه في اليوم السابق. وأي سجقٍ يمكن

Twitter: @ketab_n

أن يصبر في طقس كهذا؟ بعد بضعة أيام فاحتْ في كل مكان رائحةُ لحم يتعفّن ببطءٍ في جوٍّ مخلّفاتٍ كئيبة. أسوأ من ذلك أكل أناسٌ في اجتماعٍ عائليٍّ قريبًا من طريق شلالات فوركس السريع لحمَ خنزيرٍ محمّرٍ فماتوا عن بكرة أبيهم. بدا جليا أنّ خنزيرَهم كان فاسدا. ومَن يستطيع أن يميّز ما إذا كان باقي اللحم سليما أم لا؟ انقسم الناس بين التّوقِ إلى مذاقِ لحم الخنزيرِ الشهيِّ وبين الخوفِ من الموت. كان وقتا من أوقات الهدر والفوضى.

سبب هذا كله، مارفن ميسي، لم يكن يشعر بالخزي. كان يُشاهَد في كل مكان. خلال ساعات العمل يتسكّع حول المصنع، ينظر من خلال النوافذ، وفي أيام الآحاد يرتدي قميصَه الأحمر ويذرع مستعرضا الطريقَ جيئة وذهابا بقيثارته. كان لا يزال وسيما— بشعره البُني، وشفتيه القانيتين، ومنكبيه العريضين القويين، لكن الشرّ الذي فيه أضحى الآن مشهورا بدرجة يستحيل معها أن تُفيد منظرَه الحسن. ولم يُقَسْ هذا الشرُّ من خلال الآثام المحسوسةِ التي ارتكبها فقط. صحيحٌ أنه سرق محطاتِ الوقود تلكَ. وقبل ذلك كان قد أفسد أرقّ الفتياتِ في المقاطعة وكان سعيدا بهذا الشيء. أيُّ عددٍ من الأشياء الشريرة يمكن أن يُدرَج ضدّه، لكن بعيدا عن هذه الجرائم كانت لديه خسّةٌ دفينةٌ التصقت به كأنها رائحة. شيء آخر: لم يكن يعرقُ أبدا، ولا حتى في أغسطس، وهذه بكل تأكيد سمةٌ تستحق التأمل.

بدا الآن للبلدة أنه أخطرُ بكثير ممّا كان عليه من قبل، إذْ لا بدّ وأنه تعلم في سجن أتلانتا أفانينَ الدجل، وإلا كيف يمكن تفسيرُ الأثرِ الذي تركه على ابن الخالة لايمن؟ فبمجرد أن وقعت عيناه على مارفن ميسي سُحِرَ الأحدبُ من قِبَل روحٍ غير طبيعية. أراد أن يتبع هذا السجينَ كل دقيقة، وكان مليئًا بالحِيل السخيفة التي أراد من

Twitter: @ketab_n

خلالها أن يجذب الانتباه إلى نفسه. ومع ذلك لم يُفلح في الأمر، فإمّا أنّ مارڤن ميسي كان يتعامل معه بازدراءٍ أو أنه لم ينتبه إليه كليّا. أحيانا يستسلم الأحدب، ينطوي على درابزين الشرفة الأمامية كما يجثمُ طائرٌ سقيمٌ على سِلْك هاتف، ويعبّر عن كَمَدِه علانية.

سألت الآنسة أميليا، مُحدّقةً فيه بعينيها الرماديتين المتقاطعتين، وقبضتها المُحكمة بشدة: «لكن لماذا؟»

تأوه الأحدب: «أوه، مارڤن ميسي» فكان صوتُ الاسم كافيا ليُربك إيقاع تنهداته إلى درجة أنه بدأ يُحَوْزِق. «لقد كان في أتلانتا.»

هزّت الآنسة أميليا رأسَها وازداد وجهها سوادا وصلابة. في البداية لم تكن تتحلّى بالصبر حيالَ أي سفر. أولئك الذين سافروا إلى أتلانتا أو سافروا خمسين ميلا بعيدا عن البلدة ليشاهدوا المحيط—لقد مَقَتَتْ أولئك الذين لا يهدؤون. «الذهاب إلى أتلانتا لا يُضيف إليه شيئا ذا بال.»

قال الأحدب وقد أضناه الشوق: «لقد كان في السجن.»

كيف يمكن أن تُجادل في مَحَاسِدَ كهذه؟ في حيرتها لم تبدُ الآنسة أميليا نفسُها متأكدةً ممّا كانت تقول. «كان في السجن، يا ابن الخالة لايمن؟ يا إلهي! رحلةٌ كهاته ليست سَفَرا يُفاخَر به.»

خلال هذه الأسابيع راقبَ الجميعُ الآنسةَ أميليا عن كثب. أمّا هي فكانت تتحرك شاردةَ الذهن، وجهها قصيٌّ كما لو أنها غابت في واحدةٍ من نوباتها في اختبار الوجع. لسبب ما، منذ يوم وصولِ مارڤن ميسي تخلّت عن بنطالها الشيال وواظبت على ارتداء الفستان الأحمر الذي كانت تخصصه قبل ذلك الحين لأيام الآحاد والمآتم وجلسات المحكمة. ثم بدأت تتخذ بمرور الأسابيع بعضَ الخطواتِ لتسوّي الوضع. لكن جهودها كانت صعبة الفهم. إنْ كان يؤلمها أن ترى ابن الخالة لايمن

Twitter: @ketab_n

يقتفي خطوات مارڤن ميسي في البلدة، لمَ لا تسوّي الأمور مرةً واحدةً وإلى الأبد، وتخبر الأحدب أنه إن استمرّ في قربه من مارڤن ميسي فستطرده من حماها؟ سيكون ذلك أمرا يسيرا وسيضطر ابن الخالة إمّا للخضوع لها أو لمواجهة المصير البائس حين يجد نفسه طليقا في العالم. لكن يبدو أنّ الآنسة أميليا قد فقدت إرادتَها، إذ للمرة الأولى في حياتها تتردد أيّ طريق تسلك. ومثل كثير من الناس في وضع من الشك كهذا، قامت بأسوأ ما يمكن أن تقوم به—بدأت تسلك طرقا متعددةً في الآنِ نفسه، يتعارض كلٌ منها مع الآخر.

كان المقهى مفتوحا كل ليلة كالعادة، والغريب أنه عندما يدخل مارڤن ميسي عبر الباب مختالا يتبعُه الأحدبُ لم تكن تطرده. بل إنها قدمت له مشروباتٍ مجانية وابتسمت له ابتسامات جافة ملتوية. في الوقت ذاته نصبتْ له في المستنقع فخّا فظيعا سيفتكُ به بكل تأكيد إنْ وقع فيه. وَدَعَت ابنَ الخالة لايمن يدعوه إلى عشاءِ يوم الأحد ثم حاولت أن تُعرقله لمّا كان ينزل الدرج. بدأت حملةً ترفيهيةً كبرى لابن الخالة لايمن—قامت برحلات مُضنية إلى مشاهد فُرجة متعددة أقيمت في أماكن بعيدة، وهي تقود السيارةَ بسرعة ثلاثين ميلا إلى تشيساو، ومصطحبةً إياه إلى شلالات فوركس لمشاهدة موكب. على العموم كان وقتا صارفًا لانتباه الآنسة أميليا. في رأي أغلب الناس كانت في طريقها إلى السقوط، وأراد الجميع أن يروا ما ستؤول إليه الأمور.

عاد الطقسُ باردًا من جديد، حطّ الشتاءُ فوق البلدة، وجاء الليل قبل أن تنتهي آخر مناوبة في المصنع. نام الأطفال بكامل ملابسهم، ورفعت النساءُ تنوراتهن ليدفئن أنفسهن بالنار بطريقة حالمة. بعد أن هطل المطر صنع الطينُ في الطريق أخاديدَ صلبةً متجمدة، وانبعثت

Twitter: @ketab_n

هناك رعشاتٌ خافتةٌ لأضواء المصابيح من نوافذ المنازل، وكانت أشجارُ الدراقِ هزيلات وعاريات. في ليالي الشتاء الكئيبة الصامتة كان المقهى القلبَ الدافئَ للبلدة، تضيء مصابيحه ساطعةً بحيث تُرى من بُعدِ رُبعِ ميل. زأر الموقدُ الحديديُّ الضخمُ في آخر الغرفة ثم طقطقَ ثم احمرّ. صنعت الآنسة أميليا ستائرَ حمراءَ للنوافذ، ومن بائعٍ مرّ عبْرَ البلدة اشترت باقةً كبيرةً من الورودِ الورقيةِ التي بَدَتْ طبيعية.

مع ذلك لم تكن الزينةُ والدفءُ والإضاءةُ وحدها ما جعل من المقهى ما هو عليه. ثمة سببٌ أعمقُ جعل المقهى ثمينا بالنسبة إلى هذه البلدة. وهذا السبب العميق له علاقةٌ بكبرياءٍ معيّنٍ لم يكن معلوما في تلك الأرجاء حتى هذه اللحظة. ولفهم هذا الكبرياءِ الجديدِ لا بد من تذكّر رُخصِ الحياة الإنسانية. دائما ما كان هنالك أناس كثيرون متجمعون حول مصنع—لكن من النادر أن يكون لدى كل عائلة ما يكفي من الوجباتِ والملابس والدّهنِ لتمريره من بيت إلى آخر. يمكن أن تكون الحياةُ اندفاعا واحدا طويلا قاتما من أجل الحصول على الأشياء المطلوبة للعيش فقط. والنقطة المحيّرة هنا أنّ جميعَ الأشياءِ المفيدةِ لها ثمنٌ، ولا تُشترى بغير المال، وتلك هي الطريقة التي يسير بها العالم. لا يستلزم الأمرُ التفكّرَ لكي تعرفَ ثمنَ رِزْمَة من القطن أو ربع جالون من الدَّبس. لكن لا قيمةَ وُضعت لحياة الإنسان؛ إنها وُهبتَ لنا مجانا وتؤخذ من دون دفعِ ثمنٍ مقابلها. ما قيمتها؟ إن تنظرْ حولك ستجد أن القيمة تبدو في بعضِ الأوقات قليلةً أو لا شيءَ على الإطلاق. غالبا بعد أن تكون قد عرقتَ وجرّبتَ ولم تتحسن الأمور لصالحك، حينها ينتابك شعورٌ عميقٌ في الروح بأنّك لا تساوي شيئا.

لكن الكبرياء الجديد الذي جلبه المقهى لهذه البلدة ترك أثرا

Twitter: @ketab_n

في كلّ شخص تقريبا، حتى الأطفال. لأنك لست مُجبَرا على شراء العشاء أو قدحا من الشراب لكي تجلس في المقهى. كانت هناك مشروباتٌ باردةٌ معبأةٌ في قوارير بسعر خمسة سنتات. حتى وإن لم تستطع توفير ذلك المبلغ فإن لدى الآنسة أميليا مشروبا يُدعى عصير الكرز يُباع بسعر سنت واحد للزجاجة، وكان زهريَّ اللونِ وحلو الطعم. كان الجميع تقريبا، باستثناء تي إم ويلين المبجل، يرتادون المقهى مرةً واحدةً في الأسبوع على الأقل. يحبّ الأطفالُ أن يناموا في منازلَ غير منازلهم وأن يأكلوا على طاولة طعام الجيران. في مناسبات كهذه يتصرفون بشكلٍ لائقٍ ويكونون فخورينَ. كذلك كان الناس في البلدة يشعرون بالكبرياء حين يجلسون على طاولات المقهى. كانوا يغتسلون قبل المجيء إلى دار الآنسة أميليا، ويفركون أقدامهم بأدبٍ على العتبة عندما يدخلون المقهى. هناك يتدنّى، لمدة بضع ساعاتٍ على الأقل، الإدراكُ العميقُ المُرُّ بأنك لا تساوي شيئا ذا بالٍ في هذا العالم.

شكّلَ المقهى فائدةً خاصةً بالنسبة إلى العزّاب وتعساء الحظ والمسلولين. وهنا قد يُذكر أنه كان هناك سببٌ للشكّ في أنّ ابن الخالة لايمن كان مُصابا بالسلّ. لمعانُ عينيه الرماديتين، إلحاحُه، ثرثرتُه، وسُعاله—كل هذه كانت أمارات. إضافة إلى ذلك، يُفترض عموما أن تكون هناك صلةٌ بين عمودٍ فقريّ محدودب وبين السل. لكن كلما جاء ذكرُ هذا الموضوع على مسامع الآنسة أميليا فإنها تشتاط غضبا. كانت تُنكر هذه الأعراض بحدّة وشَراسة، غير أنها خلسةً كانت تداوي ابن الخالة لايمن بضمادات الصدر الحارة، وبدواء الخُنّاق، وما شابههما. أمّا الآن فقد ساءَ سُعالُ الأحدب في هذا الشتاء، وأحيانا يصاب بنوباتٍ يتفصّد فيها عرقا كثيفًا حتى في الأيام الباردة. لكن هذا لم يمنعه من تتبّعِ مارڤن ميسي.

Twitter: @ketab_n

يغادر الدارَ مبكّرا كلّ صباح ويذهب إلى الباب الخلفي لمنزل السيدة هيل، ينتظر وينتظر، إذْ كان مارڤن ميسي نوّاما كسولا. يقف هناك وينادي بِوَداعَة. كان صوته يُشبه تماما أصواتَ الأطفالِ الذين يجلسون القرفصاءَ بصبر فوق دوّارات يرقات ليث عفرّين، تلك الثقوب الصغيرة في الأرض التي يُعتقد أن يرقاتِ ليث عفرّين تعيش فيها، ويَكزُون الثقبَ بعود من قشّ مكنسة، وينادون بنبرة حزينة: «يا ليث عفرّين، يا ليث عفرّين، طِرْ إلى بيتك. يا سيدة ليث عفرّين، يا سيدة ليث عفرّين، اخرجي، اخرجي. بيتُك شبتْ فيه نارٌ وكلّ أولادك يحترقون.» بمثل ذلك الصوت تماما، حزينا ومُغويا ومستسلما في الآن نفسه، ينادي الأحدب باسم مارڤن ميسي كل صباح. ثم عندما يخرج مارڤن ميسي للنهار يُجرجر نفسَه خلفه في البلدة وأحيانا يمضي على خروجهم سويا إلى السبخة ساعات.

استمرت الآنسة أميليا في القيام بأسوأ الأشياء الممكنة، وهو أنْ تحاولَ أن تسلكَ طرقا متعددةً في الآن نفسه. عندما غادر ابن الخالة لايمن المنزل لم تنادِه ليعود، وإنما وقفت في منتصف الطريق وراقبته بوحشة حتى غاب عن نظرها. كان مارڤن ميسي يظهر تقريبا كل يوم مع ابن الخالة لايمن عند وقت العشاء، ويأكل على طاولتها. فتحت الآنسة أميليا عُلبَ مربى الكمثرى وجُهّزت الطاولةُ بلحم الخنزير أو الدجاج وأوعية كبيرة من فريك عصيدة الذرة وبازلّاءَ الشتاء. صحيح أنه في إحدى المرات حاولت الآنسة أميليا أن تسّمم مارڤن ميسي، لكن كان هناك خطأ، فقد خُلطَت الصحونُ فكانت هي نفسها من أخذ الصحن المُسَمّم. وهذا ما أدركته سريعا بفضلِ مرارةِ الطعام الطفيفة، فلم تأكلْ تلك الليلة عشاءً. جلست مائلةً إلى الوراء في كرسيّها، تتحسّس عضلاتِها، وتسترق النظر إلى مارڤن ميسي.

Twitter: @ketab_n

كان مارڤن ميسي يأتي كل ليلة إلى المقهى ويجلس على أفضلِ الطاولاتِ وأكبرِها، تلك التي في منتصف الغرفة. أحضر له ابن الخالة لايمن الشرابَ الذي لم يدفع سنتًا واحدًا ثمنًا له. أزاحَ مارڤن ميسي الأحدبَ كما لو كان بعوضةَ مستنقع، ولم يكتفِ بأنه لم يُظهرْ أي امتنانٍ لهذه الأفضال، بل إنه كلما صار الأحدب في طريقه فإنه يلطمه بقَفا يده أو ينهره قائلا: «ابتعدْ عن طريقي يا مكسورَ الظهرِ وإلا سلختُ فروةَ رأسك.» عندما يحدث هذا تأتي الآنسة أميليا من خلف منضدة الحساب وتقترب من مارڤن ميسي ببطء شديد، قبضتاها مطبقتان، وفستانها الأحمر المميز منسدل بغرابةٍ على ركبتها البارزتين. يُطبق مارڤن ميسي أيضا قبضتيه فيتكلمان ببطءٍ وجدّيةٍ وهما متقاربان. لكن على الرغم من أن الجميع يتابعون المشهدَ بتلهُف، لم ينتج عن ذلك التحدي شيءٌ، إذ لم يكن وقتُ العِراكِ قد حان بعد.

ثمة سببٌ واحدٌ معيّنٌ جعل الناس يتذكّرون هذا الشتاء ولا يزالون يتحدثون عنه. حدث شيءٌ عظيم. استيقظ الناس في الثاني من يناير فإذا العالمُ من حولهم قد تغيّر كليا. نظر الأطفال الصغار الجهلة من النوافذ فشعروا بحيرةٍ شديدةٍ إلى درجة أنهم شرعوا في البكاء. فتش كبارُ السنّ في الماضي فلم يتذكروا شيئا في تلك الأرجاء يساوي الظاهرة. لأنه في تلك الليلة تساقط الثلج. في الساعات المعتمة بعد منتصف الليل بدأت الندفُ الهشةُ في السقوط بنعومةٍ على البلدة. عند الفجر كانت الأرض قد غُطّيت، وكان الثلج الغريب قد تراكم على النوافذ الياقوتية للكنيسة وبَيَّضَ أسقفَ المنازل. منح الثلجُ البلدةَ منظرا مُنهَكا وكئيبا. كانت المنازلُ ثنائيةُ الغرفِ المتاخمةُ للمصنع متسخةً ومائلةً وبدت كما لو أنها على وشك الانهيار، وبطريقة ما كان كل شيء معتما ومنكمشا. لكن الثلج نفسه—كان له جمالٌ لم

Twitter: @ketab_n

يخبُره من قبلُ سوى قلة من الناس الموجودين هنا. لم يكن الثلجُ أبيضَ كما صوّره أهلُ الشمال، بل كانت فيه ألوانٌ لطيفةٌ من الأزرق والفضي، وكانت السماء تشعّ لونا رماديا رقيقا. والسكون الحالم للثلج المتساقط—متى أطبق الصمتُ على البلدة كما هو الحال الآن؟

استجاب الناس لتساقط الثلج بطرق متعددة. إذ نظرت الآنسة أميليا إلى الخارج من نافذتها، حرّكت بتفكيرٍ أصابعَ قدميها الحافيتين، وقرّبت من رقبتها ياقةَ جلبابِ النوم. وقفت هناك هنيهةً ثم بدأت تسحب مصراعي النافذة وتوصد كل نافذة في منزلها. أقفلت المكانَ تماما، وأشعلت المصابيح، وجلست بوقارٍ أمامَ وعاءِ الفَريك. لم تفعل هذا لأن تساقطَ الثلجِ أرعبها، بل لأنها ببساطة لم تفلحْ في تكوين رأيٍ مباشرٍ بخصوص هذا الحدثِ الجديد، وما لم تعرف بالضبط وتحديدا ما تشعر به حيال موضوعٍ ما (وهذا ما يحدث في الغالب) فإنها تفضّل أن تتجاهلَه. لم يتساقط الثلج في حياتها على هذه المقاطعة أبدا، ولم تفكّر فيه قطُّ بطريقة أو بأخرى. لكن إن اعترفت بتساقط الثلج هذا فإنها ستكون مضطرةً إلى الوصول إلى قرار، وفي تلك الأيام كان في حياتها ما يكفي لتشتيت انتباهها بالفعل. لذلك تمشّت في المنزل المعتم الذي تضيئه المصابيحُ متظاهرةً بأن شيئا لم يحدث. على عكسها، ركض ابن الخالة لايمن بانفعالٍ مسعورٍ في البيت، وعندما أدارت الآنسة أميليا ظهرَها لتضعَ في صحنٍ إفطارَه مَرَقَ من الباب خلسة.

مارڤن ميسي ادّعى معرفةً بتساقط الثلج. قال إنه يعرف الثلج، إذ رآه في أتلانتا، وكانت الطريقةُ التي مشى بها في البلدة في ذلك اليوم كما لو أنه امتلك كلَّ ندفة ثلج. سخر من الأطفال الصغار الذين خرجوا من منازلهم زاحفين بخوف وغرفوا بأيديهم حفناتٍ من الثلج

Twitter: @ketab_n

ليتذوقوه. سار ويلين المبجل على الطريق هرعًا بوجه حانق، إذ كان يفكر بعمقٍ مُحاولا أن يُدْرِج الثلجَ في خطبته ليوم الأحد. كان أكثر الناس متواضعين وسعداءَ بهذه المعجزة، إذ تحدثوا بأصوات خفيضة وقالوا «شكرا» و«من فضلك» أكثر من اللازم. كان هناك بالطبعِ بضعةُ أشخاص ضعاف أصيبوا بالإحباط فسَكِروا، لكنهم لم يكونوا كثيرين. مُجملَ القول إنّها كانت مناسَبةً للجميع، وعدَّ كثيرون نقودَهم مخططين للذهاب إلى المقهى في تلك الليلة.

ظل ابن الخالة لايمن يتتبع مارڤن ميسي طوال النهار مؤيدا ادعاءَه بشأن الثلج. تعجّب من أن الثلج لم يتساقط كما يسقط المطر، وحدّق إلى الأعلى في الندفِ الحالمةِ النازلةِ بدَعَةٍ حتى تعثّر من الدُّوار. كان الكبرياء الذي تظاهر به لنفسه، وهو ينعَم بمجدِ مارڤن ميسي، هائلا إلى درجة أنّ كثيرًا من الناس لم يقاوموا مناداته متهكّمين: «قالت الذبابةُ على عجلةِ العربة: أوهووو، يا له من غبارٍ ذلك الذي نُثيره!»

لم تشأ الآنسة أميليا أن تقدّم العشاء. لكن عندما كان هناك وقعُ أقدام في الشرفة في الساعة السادسة فتحت البابَ الأمامي بحذر. كان هُنري فورد كريمپ، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك طعام، سمحت له بأن يجلس على طاولةٍ وقدّمت له مشروبا. جاء آخرون. كان المساء حزينا وقارسا ولم يكد الثلج يتوقف عن التساقط حتّى هبّت من جهة أشجار الصنوبر رياحٌ كنست الثلجَ الرقيقَ من وجه الأرض. لم يأت ابن الخالة لايمن إلا بعد الظلام، ومعه مارڤن ميسي يحمل حقيبته الصفيحية وقيثارته.

سألت الآنسة أميليا حالا: «تنوي أن تسافر إذن؟»

اصطلى مارڤن ميسي بنار الموقد ثم استراح على طاولته وأخذ يَبْري باهتمامٍ عُودًا صغيرًا. خلّل به أسنانه، مُخرجا العودَ كل آونة

Twitter: @ketab_n

من فمه لينظر إلى نهايته ويمسحه على كُمّ معطفه. لم يُبد اكتراثا للسؤال.

نظر الأحدب إلى الآنسة أميليا التي كانت تقف وراء منضدة الحساب. لم يكن وجهه على الأقل متضرعا، إذ بدا واثقا من نفسه. طوى يديه خلف ظهره، وأصاخ السمع بانتباه وثقة. كان خدّاه أحمرين، وعيناه لامعتين، وملابسه المبللة متشبعة بالماء. قال: «مارڤن ميسي سيبقى معنا لبعض الوقت.»

لم تُبدِ الآنسة أميليا اعتراضا. إنما خرجت من وراء المنضدة وحامت فوق الموقد وكأن الخبرَ أصابها فجأة بالبرودة. لم تُدفئ مؤخرتها بحياء، وقد رفعت تنورتها حوالي إنش، كما تفعل معظم النساء حين يكنّ في حضرة آخرين. لم يكن عند الآنسة أميليا ذرةُ حياء، وكانت دائما ما تبدو وكأنها نسيت أنّ في الغرفة رجالا. إذ وقفت تدفئ نفسها الآن، فستانها الأحمر مرفوع من الخلف عاليا بحيث غدت رؤيةُ جزء من فخذها القويّ الأشعرِ ممكنةً لكل من أراد النظر إليه. كان رأسها مائلا إلى الجانب وبدأت التحدث مع نفسها، وهي تومئ وتجعد جبينَها، وكانت في صوتها نبرةُ اتهام وتوبيخ على الرغم من أنّ الكلمات لم تكن واضحة. في تلك الأثناء صعَد الأحدب ومارڤن ميسي إلى الأعلى—إلى الردهة—حيث عشب البمب وماكينتا الخياطة، حيث الغرفتان الخاصتان اللتان عاشت فيهما الآنسة أميليا كل حياتها. في المقهى في الأسفل يمكنك سماعهما يصطدمان في الأشياء وهما يتحركان ليُفرغا حقيبةَ مارڤن ميسي ويُجهّزا لاستقراره.

هذه هي الطريقة التي حشر بها مارڤن ميسي نفسَه في بيت الآنسة أميليا. في البداية نام ابن الخالة لايمن الذي كان قد أعطى مارڤن ميسي غرفته، على الأريكة في الردهة. لكن تساقطَ الثلج ألحق به

Twitter: @ketab_n

الأذى، فقد أصيب بنزلة برد تحولت إلى لُوَاز صديديّ شتائيّ دفع الآنسة أميليا إلى التنازل عن سريرها له. كانت الأريكة في الردهة قصيرةً جدا بالنسبة إليها فاضطرت لثني قدميها عند الأطراف، وغالبا ما تدحرجت ساقطةً على الأرض. ربما أذهب فطنتَها نقصُ النوم؛ إذ إن كلّ ما حاولت القيام به للنيل من مارڤن ميسي ارتدّ عليها. حُوصرت في حيَلها الخاصة ووجدت نفسها في مواقفَ مثيرة للشفقة لا تحصى. مع ذلك لم تتمكن من طرد مارڤن ميسي من حِماها، لأنها خافت أن تُترك لوحدها. عندما تكون قد عشتَ طويلا مع أحد، إنه لعذابٌ شديدٌ أن تضطر إلى العيش وحيدا. سكوتُ غرفة تُضيئُها النارُ حين تتوقفُ ساعةُ الحائط فجأةً عن الدّق، الظلالُ العصبيةُ في أي منزل فارغ—خيرٌ لك أن تستوعب خصمَك الهالكَ من أن تواجه رُعبَ العيش وحيدا.

لم يَدُم الثلج. ظهرت الشمس وفي خلال يومين عادت البلدة كما كانت من قبلُ تماما. لم تفتح الآنسة أميليا منزلها حتى ذابت آخرُ ندفة. ثم قضت اللّيل كلّه في التنظيف وعرّضت كلَّ شيء للشمس في الخارج. لكن قبل ذلك كان أولُ شيء قامت به لمّا استأنفت الخروجَ إلى فنائها هو ربطُ حبل في أكبر أغصان شجرة الليلك الهندي. وفي نهاية الحبلِ ربطت كيسا خيشيا مملوءًا رملا. كان هذا كيسَ الملاكمة الذي صنعته لنفسها، ومنذ ذلك اليوم ظلّت تلاكمه في فنائها كلّ صباح. كانت ملاكمةً بارعةً بالفعل—بطيئةَ الحركة قليلا ولكنها تعوّض ذلك بمعرفتها كل أساليب الخنقِ والقبضِ الفاتكة.

كان طول الآنسة أميليا، كما أسلفنا الذكر، ستَّ أقدام وإنشين. كان مارڤن ميسي يقصرها بمقدار إنش واحد. بالنسبة إلى الوزن كانا متساويين تقريبا، إذ يزِنُ كلاهما قرابةَ مئةٍ وستين پاوندا. كان

Twitter: @ketab_n

مارڤن ميسي يتمتع بأفضلية خفة الحركة والمراوغة وصلابة الصّدر. في الواقع، ومن وجهة نظر خارجية، كانت الأفضلية تصبّ في صالحه بوضوح. مع ذلك كان الجميع تقريبا في البلدة يضعون رهانَهم في الآنسة أميليا، ومن النادر أن يراهن شخصٌ بنقوده على مارڤن ميسي. تذكّرت البلدةُ المباراةَ العظيمة بين الآنسة أميليا ومُحام من شلالات فوركس حاول أن يغشّها. كان رجلا ضخما وعملاقا غيرَ أنه تُرك في ثلاثة أرباع طريقه إلى الموت لمّا هزمته. ولم تكن موهبتُها كملاكمة فقط ما أثار إعجاب الجميع، بل قدرتها على تدمير معنويات خصمها برسم تعابيرَ مرعبة على وجهها وإطلاق أصوات متوحشة إلى درجة تجعل المتفرجين أنفسهم يرتاعون أحيانا. كانت شجاعة وتمرّنت بتفانٍ مع كيس الملاكمة، وفي هذه الحالة كانت في جانب الصواب بكل وضوح. لذلك وثق الناس فيها وانتظروا. بالطبع لم يُحدَّد موعدٌ لهذه المعركة. فقط هناك دلائلُ واضحة بشكل يعسر معه تجاهلها.

خلال هذه الأيام جرجر الأحدبُ قدميه بوجه مسرورٍ وقلق قليلا. بطرق كثيرة رقيقة وذكية أثار المشاكل بينهما. كان يسحب باستمرار ساقَ بنطالِ مارڤن ميسي ليجذب إلى نفسه الانتباه. أحيانا يتبع خطى الآنسة أميليا، لكن الأمر خلال هذه الأيام كان فقط من أجل تقليد مشيتها الغريبة المتوانية. حوّل عينيه وحاكى إيماءاتها بطريقة جعلتها تبدو غريبة المنظر. كان هناك شيءٌ فظيعٌ بخصوص هذا السلوك، فظيعٌ جدا إلى درجة أنّ أسخف زبائن المقهى، من أمثال ميري راين، لم يضحكوا. وحده مارڤن ميسي رفعَ زاويةَ فمه اليسرى وضحك ضحكةً مكتومة. الآنسة أميليا، عندما حدث هذا الشيء، كانت منقسمةً بين عاطفتين. كانت تنظر إلى الأحدب بعتابٍ يائسٍ ومُحزن، ثم تلتفت إلى مارڤن ميسي بأسنانٍ مُحتدمة.

Twitter: @ketab_n

كانت تقول بضراوة: «أعدّ عدّتك!»

يلتقط مارڤن ميسي في الغالب القيثارة من الأرض إلى جانب كرسيه. كان صوته رطبا ودبقا، إذ دوما ما كان في فمه كثيرٌ من البصاق. والألحان التي غناها انسلّت بطيئة من حلقه مثل ثعابين. عزفت أصابعه المتينة على الأوتار بمهارة صعبة الإرضاء، وكل شيء غناه كان مُغويا ومثيرا للسخط في الوقت نفسه. كان هذا في الغالب يفوقُ طاقةَ الآنسة أميليا على الاحتمال.

كانت تُعيد صائحة: «أعدّ عدّتك!»

لكن مارڤن ميسي دائما ما يُجيبها إجابةً جاهزة. يضغط الأوتار مُصْمِتا بقايا النغماتِ المرتجفة ويردّ بعجرفةٍ واثقةٍ ومتمهلة.

«كل شيء تصيحين به عليّ يرتد إليك أنت. ياه! ياه!»

كانت الآنسة أميليا تقف هناك وقد غُلِبَت على أمرها، إذ لم يخترع أحدٌ قطُّ مخرجا من هذا الفخ. لم يكن في وسعها أن تصرخ بإساءاتٍ ترتدّ إليها. لقد سيطر عليها فلم يَعُدْ هناك ما تستطيع القيام به.

استمرت الأمور على هذا الحال إذن. لم يعرفْ أحدٌ ما حصل بين ثلاثتهم في الليالي في غُرف الطابق العلوي. لكن المقهى أمسى أكثر ازدحاما ليلةً بعد ليلة. أُحضرتْ طاولةٌ جديدة. حتى الناسك، الرجل المجنون الذي يُدعى راينر سميث الذي اعتكف في المستنقع قبل سنوات، تناهى إلى سمعه بعضُ ما قيل عن الوضع فأتى ذات ليلةٍ ليطلّ عبر النافذة ويتأمل الحشد المجتمع في المقهى الساطع. وكانت ذروةُ التشويقِ كل مساء عندما يطوي كلّ من الآنسة أميليا ومارڤن ميسي قبضته ويتهيأ للصراع مُحملقا في وجه الآخر. عادةً لا يحدث هذا عقب أي جدالٍ استثنائي، ولكن يبدو أنه يحدث بطريقة غامضة، مدفوعا بغريزةٍ ما من قِبَل الطرفين. في هذه الأوقات يرين على المقهى

Twitter: @ketab_n

هدوءٌ تامٌّ بحيث يمكنك سماعُ حفيفِ باقةِ الوردِ الورقيةِ حين يمسّها التيارُ الهوائي. وكل ليلةٍ كانا يبقيان على وضعِ الشجارِ هذا مدةً أطولَ بقليلٍ من الليلة التي سبقتها.

Twitter: @ketab_n

وقعت المعركة في يوم خنزير الأرض، أي في الثاني من فبراير[1]. كان الطقس مُناسبًا، إذ لم يكن مُمطرا ولا مشمسا، بل كانت حرارته معتدلة. كانت هناك مؤشراتٌ عدةٌ بأنه اليوم الموعود، وحين جاءت الساعة العاشرة انتشر الخبرُ في المقاطعة كلها. في الصباح الباكر خرجت الآنسة أميليا وقصّت كيسَ الملاكمة. جلس مارڤن ميسي على الدرج الخلفي بعلبةٍ معدنيةٍ من دهنِ الخنزيرِ بين ركبتيه وشَحَّم ذراعيه وساقيه بعنايةٍ. حلّقَ فوق البلدة صقرٌ بنحرٍ دام وطاف فوق دار الآنسة أميليا طوفتين. نُقلت طاولات المقهى إلى الشَّرفة الخلفية بحيث تصبح الغرفة الكبيرة فارغةً بالكامل للمعركة. كانت هناك كلّ الدلائل. كلٌّ من الآنسة أميليا ومارڤن ميسي أكل أربعَ غَرْفاتٍ من اللحم المشويّ غير كامل النضج ثم اضطجعَ بعد الزوال لتخزينِ طاقته. اسَتراح مارڤن ميسي في الغرفة الكبيرة في الأعلى، أما الآنسة أميليا فتمددت على المقعد الطويل في مكتبها. كان جليّا من وجهها الأبيض الجامد أيّ عذابٍ تُلاقيه من الاستلقاء دون القيام بأي شيء، لكنها استلقت هناك مثلَ جثةٍ هامدةٍ مُطبقةً عينيها وشابكةً يديها فوق صدرها.

كان يومُ ابن الخالة لايمن مضطربًا، ووجهُه الصغيرُ ذابلاً ومتوترًا

---

(1) يتحرى الناس في الولايات المتحدة الأمريكية في هذا اليوم خروج خنزير الأرض الذي يُسمّى أيضًا قندس الأرض، من جُحره، فإن صادف سماء غائمة (ولم يرَ ظلّه) تنبأ الناس بقدوم باكر للربيع وإن صادف سماء مشمسة (ورأى ظلّه) تنبؤوا بشتاء أطول. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

من الإثارة. صنع لنفسه غداءً ثم خرج بحثا عن خنزير الأرض— وخلال ساعة عاد، وقد تناول الغداء، ثم قال إنّ خنزيرَ الأرضِ رأى ظله وإنّ البلدةَ مُقبلةٌ على طقسٍ سيئٍ. ثم لمّا تُرك لوحده، بينما كانت الآنسة أميليا ومارڤن ميسي يستريحان لاستجماع قواهما، خَطَرَ له أن يصبغ الشرفةَ الأمامية. لم يُصبغ البيتُ منذ سنوات—في الواقع، اللّه وحده يعلم إن كان قد صُبغ أصلاً. بدأ ابن الخالة لايمن العمل، وسريعا صبغَ نصفَ أرضيةِ الشرفةِ بلونٍ أخضرَ مشرقٍ زاهٍ. كانت مهمة فوضوية لطخ بسببها كل ملابسه. وكالعادةِ لم ينتهِ حتى من الأرضية، لكنه انتقل إلى الجدران، صابغا أقصى ما يمكن أن يبلغه ثم وقف على صندوقٍ كيما يصل إلى ارتفاع قدم أعلى. لما نفد الصّبَاغُ كان الجزءُ الأيمنُ من الأرضية أخضرَ زاهيا وكأنت هناك بقعةٌ خشنةٌ من الجدار قد صُبغت. تركها ابن الخالة لايمن على ذلك الحال.

كان هناك شيءٌ طفوليٌ في قناعته بصباغته. وفي هذا الشأن يتعيّن ذكرُ حقيقةٍ مثيرةٍ للاهتمام. لا أحد في البلدة، ولا الآنسة أميليا نفسها، يملك أدنى فكرةٍ عن سنّ الأحدب. قال بعضهم إنه عندما أتى إلى البلدة كان يناهز اثنتي عشرة سنة، لا يزال طفلا، بينما كان آخرون متأكدين من أنه قد تجاوز الأربعين بكثير. كانت عيناه زرقاوين وراسختين مثل عيني طفل، لكن هناك ظلالٌ خشنةٌ أرجوانيةٌ تحت تَيْنِك العينين الزرقاوين تلمّح إلى سنّه. كان مستحيلا تخمينُ كَمْ يبلغُ من العمر من خلال جسدِه المحدودبِ الغريب. وحتى أسنانه لم تُقدّم أي دليل، فجميعها ما تزال في فكه (اثنتان مثلومتان بسبب كسرِ جوزةِ البقان) لكنه بقّع أسنانَه كثيرا بالسعوط الحلو إلى درجة يستحيل معها تحديدُ ما إذا كانت أسنانا يافعةً أم هَرِمة. وعندما يُواجَه الأحدبُ بالسؤال عن عمره فإنه يزعم بأنه لا يعرف شيئا على

Twitter: @ketab_n

الإطلاق—لا يعرف كم مرّ على وجوده على الأرض، ما إذا كانت عشر سنوات أو مئة سنة! ولذا ظل سنّه لغزا.

انتهى ابن الخالة لايمن من صباغته في الخامسة والنصف مساء. أمسى النهار باردا وكان هناك مذاق رطب في الجو. جاءت الريح من جهة غابة الصنوبر، ترجّ النوافذ، تُطيّر جريدةً قديمةً على الطريق حتى نشبت أخيرا في شجرة مشوّكة. بدأ الناس يتوافدون من الريف، سياراتٌ مملوءةٌ توراتٌ أسقفُها خلف رؤوس الأطفال المنبثقة من نوافذها، عرباتٌ تجرّها بغالٌ هَرِمةٌ تبدو كأنها تبتسم في سأم ونكد وتتهادى في مشيتها وأعينها المرهقةُ نصفُ مُغمضة. قدم ثلاثةُ صبيانٍ من مدينة المجتمع. ارتدى الثلاثة كلهم قمصانا حريرية صفراء وقُبعاتٍ اعتمروها إلى الوراء—كان الشبهُ بينهم شديدا وكأنهم توائم، ودائما ما كانوا يُشاهَدون في مصارعات الديكة واجتماعات الصحوة الدينية. في السادسة تماما أطلقت صافرةُ المصنع صَفْرَةَ نهايةِ مُناوبةِ اليوم واكتمل الحشد. طبيعيا، كان من ضمن الوافدين الجدد بعضُ الشخصيات غير المعروفة من الرّعاع، لكن مع ذلك كان الاجتماع هادئا. عمّ السكون البلدة وكانت وجوهُ الناس غريبةً في الضوء المتلاشي. حلّق الظلامُ بنعومة، ولوهلة كانت السماءُ صفحةً صفراء باهتة انتصبت دونها جملوناتُ الكنيسة في رسم معتم وأعزل، ثم ماتت السماء رويدا رويدا واحتشد الظلامُ في الليل.

السبعة رقم شائع، كما أنه رقمٌ مفضّلٌ لدى الآنسة أميليا. سبعُ جرعات من الماء للحازوقة، سبعُ دورات حول بركة الطاحونة لتشنجات الرقبة، سبع جرعات من دواء «أميليا جالبة المعجزات» علاجا للدّود— دائما ما توقّف دواؤها على هذا الرقم. إنه رقمُ الاحتمالات المتشابكة، وكل مَن يحبون الغموضَ والمفاتنَ علّقوا عليه الآمال. إذن

Twitter: @ketab_n

قُيّضَ للمعركة أن تقام في تمام الساعة السابعة. عرف الجميع هذا، ليس من خلال إعلان أو كلمات، لكنه فُهم بالطريقة التي لا يرقى إليها الشكّ، الطريقة نفسها التي يُفهم بها المطرُ أو رائحةٌ فاسدةٌ آتيةٌ من المستنقع. قبل الساعة السابعة تحلّق الجميعُ برزانة حول دار الآنسة أميليا. دخل أذكاهم المقهى ووقفوا مصطفّين على جدران الغرفة. احتشد آخرون عند الشرفة الأمامية أو أخذوا مواقعهم في الفناء.

لم تكن الآنسة أميليا ومارڤن ميسي قد ظهرا للأنظار بعد. صعدت الآنسة أميليا إلى الأعلى بعد الاستراحة على مقعد المكتب من الظهر حتى المساء. في المقابل كان ابن الخالة لايمن في كل مكانٍ يخيط طريقَه عبر الحشود، مُفرقعا أصابعَه بعصبية، وضاربا عينيه براحة يده. في السابعة إلا دقيقة واحدة شقّ طريقَه في المقهى وتسلّق المنضدة. كان كل شيءٍ في قمة الهدوء.

لا بد وأن الأمور رُتب لها مُسبقا لتكون بهذا الشكل. لأنه حين دقت الساعة السابعة تماما ظهرت الآنسة أميليا على رأس السلّم. وفي اللحظة نفسها ظهر مارڤن ميسي أمام المقهى وأفسح له الجمهورُ الطريقَ في صمت. مشي كلّ منهما في اتجاه الآخر من دون استعجال، وقبضةُ كلّ منهما مقبوضةٌ، وأعينهما تشبه أعينَ الحالمين. استبدلت الآنسة أميليا فستانَها الأحمرَ ببنطالها الشيال القديم، وكان ساقاه مبرومتين إلى الأعلى حتى الركبتين. كانت حافيةَ القدمين وتضع دعامةً حديديةً حول معصمها الأيمن. وقد برم مارڤن ميسي ساقَيْ سرواله أيضا—كان عاريًا حتى الخصر، مدهونًا بالشحم بشكلٍ كبير، كما كان يرتدي الحذاءَ الثقيلَ الذي صُرف له عند خروجه من السجن. خَطا ماكفيل البدين من الحشد إلى الأمام وضرب جيبَيْ كلّ منهما براحة يده اليمنى ليتأكد من أنه لن يكون هناك ظهورٌ مفاجئٌ

Twitter: @ketab_n

لسكاكين. كانا بمفردهما في منتصف المقهى المضيء.

لم تكن هناك إشارة، لكنهما بدءا الهجوم في اللحظة نفسها. كلا الضربتين استقرّتا على الذقن، فاهتزّ رأسا الآنسة أميليا ومارڤن ميسي في اللحظة ذاتها إلى الوراء وترنّحا قليلا. ولم يفعلا شيئًا خلال بضع ثوانٍ بعد أول ضربتين غير جرجرة أقدامهما على الأرضية العارية، وهما يُجرّبان وضعيات عديدة، ويقومان بضربات وهمية بالقبضة. ثم أخذ كلّ منهما يضرب الآخرَ فجأةً مثل قطتين برّيتين. كان هناك صوتُ ضربات عنيفة، لهاث، ارتطامات على الأرض. كانا سريعين جدا إلى درجة أنه كان من الصعب استيعابُ ما يحدث— لكن في إحدى المرات قُذفت الآنسةُ أميليا إلى الوراء فتهاوت مترنّحةً وكادت تسقط، وفي مرة أخرى تلقى مارڤن ميسي ضربةً عنيفةً على كتفه جعلته يدورُ مثل غطاء. هكذا استمرت المعركة بهذه الطريقة الوحشية العنيفة من دون إشاراتٍ لضعفِ أيّ من الجانبين.

خلال صراع كهذا، عندما يكون الخصمان بسرعةِ هذين وقوّتهما، من الجدير بالاهتمام أن ننتقل من فوضى المعركة نفسها إلى ملاحظة المتفرجين. تراجع الناسُ إلى الوراء ليُفسحوا ما استطاعوا مُقتربين من الجدران. كان ماكفيل البدين رابضا في زاوية وبقبضتين مشدودتين من التعاطف مُصدرا أصواتا غريبة. فَغَرَ ميرلي راين المسكينُ فاهُ عن آخره حتّى دخلته ذبابةٌ تطنُّ وبُلعت قبل أن يفطن ميرلي لما حدث. أما ابن الخالة لايمن فكان جديرا بالمشاهدة. كان الأحدب لا يزال واقفا على المنضدة بحيث أصبح أطولَ من الموجودين في المقهى جميعا. كان يُريح يديه على وِرْكَيه، ورأسه الكبير مدفوعًا إلى الأمام، وساقاه الهزيلتان مثنيّتين بشكل يُبرز نتوء ركبتيه إلى الخارج. وقد جعله الحماس منغمسًا كليًا في المشهد، وفمه الشاحب يرتجف.

Twitter: @ketab_n

ربما مضت نصفُ ساعة قبل أن تأخذ المعركةُ منعطفا آخر. تبادل الطرفان مئاتِ الضربات، ولكنهما كانا متعادلين. لكن بغتةً تمكن مارڤن ميسي من أن يُمسك بذراع الآنسة أميليا اليسرى ويوثقها خلف ظهرها. قاومت واستطاعت أن تطوّق بيديها خصرَه، ومن هنا بدأت المعركة الحقيقية. المصارعة هي الشكل الطبيعي للمعارك في هذه المقاطعة، إذ الملاكمةُ سريعةٌ جدا وتتطلب قدرا كبيرا من التفكير والتركيز. والآن بما أن الآنسة أميليا ومارڤن ميسي ثبّت واحدُهما الآخر تجاوز الحشدُ انبهارَه واقترب مضيّقا الدائرة. لمدة من الوقت أحكم المتصارعان قبضَ بعضِهما، عضلةً عضلةً حتى حاصرتْ عظامُ الورِكين بعضها. تمايلا على هذا النحو، إلى الوراء وإلى الأمام، ومن الجنب إلى الجنب. لم يعرق مارڤن ميسي بعد، أما بنطال الآنسة أميليا الشيال فقد تبلل وأخذ عرقٌ كثيرٌ يصبّ من ساقيها بحيث تركت قدماها أثرا نديّا على الأرضية. حان الآن وقتُ الامتحان، وفي لحظات الجهدِ الهائلِ هذه كانت كفةُ القوة تميل لصالح الآنسة أميليا. كان مارڤن ميسي مشحّما وزَلِقا، عصيّا على الإمساك، لكنها كانت أقوى. تدريجيا أخضعته على الانحناءِ إلى الخلف، وإنشا بعدَ إنشٍ تمكنت من تثبيته على الأرضية. كان شيئا فظيعا حين مشاهدته وكانت أنفاسُهما العميقةُ الغليظةُ الصوتَ الوحيدَ المسموعَ في المقهى. أخيرا طرحته، وهو مفرشخ أيضا، وقد أخذت بخِناقِه بيديها الضخمتين القويتين.

لكن في تلك اللحظة، في اللحظة التي كسبت فيها النّزال، جلجلت صيحةٌ في المقهى أثارتْ قشعريرةً حادةً صافيةً تسري في العمود الفقري. وما حدث في تلك اللحظة ظلّ لغزا منذ ذلك الحين إلى الأبد. كانت البلدة بأكملها هناك لتشهد ما حدث، لكن كان هناك من شكّ في بصره. لأن المنضدة التي وقف ابن الخالة لايمن عليها كانت

Twitter: @ketab_n

أعلى من المتصارعين في منتصف المقهى بمقدار اثنيّ عشر قدما على الأقل. مع ذلك في اللحظة التي أخذت الآنسة أميليا بخناقِ مارڤن ميسي نطّ الأحدب إلى الأمام وطار في الهواء كما لو نبت له جناحا صقر. هبط على ظهر الآنسة أميليا العريض القوي وتشبث برقبتها بأصابعه الصغيرة ذات المخالب.

باقي القصة مشوّش. هُزمت الآنسةُ أميليا قبل أن يرتدّ للمحتشدين إدراكُهم. بفضل الأحدب كسب مارڤن ميسي النّزال، وفي النهاية تمددت الآنسة أميليا منبطحةً على الأرض، ذراعاها مبسوطتان بلا حراك. وقف مارڤن ميسي فوقها، عيناه جاحظتان في وجهه، لكنه ابتسم ابتسامتَه القديمةَ غيرَ المكتملة. أما الأحدب فقد اختفى فجأة. لعله ذَعَرَ مما فعل أو لعله كان في منتهى الابتهاج إلى درجة أنه أراد أن يحتفل بمفرده—في كل الأحوال راغ من المقهى وزحف تحت الدرج الخلفي. صبّ أحدهم على الآنسة أميليا ماءً وبعد وقت نهضتْ بتوانٍ وسحبت نفسها إلى داخل مكتبها. من الباب الموارب كان في وُسعِ الحشدِ أن يرَوْها جالسةً أمام طاولتها، رأسُها في انحناءة ذراعها، وكانت تنشج مع آخر رمقٍ في نفَسِها المتقطّع العاصف. جمعت قبضةَ يدِها اليمنى وطرقتها ثلاثَ مراتٍ على سطح طاولة المكتب، ثم فتحت يدها بوهنٍ وتركتها ملقاةً مبسوطةَ الكفِّ إلى أعلى وساكنة. تقدم ماكفيل البدين إلى الأمام وأغلق الباب.

هدأ الحشد وغادر الناس المقهى واحدا تلو الآخر. أُوقظت البغالُ وحُلَّت أربطتُها، وأُديرت محركاتُ السيارات، وسلك الصبيان الثلاثةُ الذين قدموا من مدينة المجتمع الطريقَ مُغادرين على أقدامهم. لم يكن هذا نزالاً يُستعاد في الأحاديث ويُناقَش فيما بعد، انصرف الناس إلى بيوتهم وسحبوا على رؤوسهم الأغطية. كانت البلدةُ معتمةً ما عدا

Twitter: @ketab_n

دار الآنسة أميليا التي كانت كل غرفة فيها مضاءةً الليلَ كله.

لا بد وأن مارڤن ميسي والأحدب غادرا خلال ساعة أو نحوها قبل ضوء النهار. وقبل أن يغادرا كان هذا ما فعلاه:

فتحا قفلَ خزانةِ التحفِ الخاصةِ وأخذا كل شيء بداخلها.

حطّما البيانو الآلية.

نقَشا كلماتٍ فظيعةً على طاولات المقهى.

عثرا على الساعة التي تنفتح من الخلفِ على صورةٍ لشلال، وأخذاها أيضا.

سكبا جالونا من محلول الذرة على أرضية المطبخ وهشّما عُلبَ المربى.

خرجا إلى المستنقع ودمّرا المِقْطرةَ كلّها، بعد أن كسّرا المُكثّف البخاريَّ الجديدَ والمُبرِّد وأضرما النار في الكوخ نفسه.

أعدّا طبقا من طعام الآنسة أميليا المفضّل، فَريكا ونقانق، وتبّلاه بسُمٍّ يكفي لهلاكِ المقاطعةِ كلها، ثم وضعا هذا الطبقَ بطريقةٍ مُغريةٍ على منضدةِ المقهى.

فعلا كل شيء تخريبي يمكن أن يطرأ على بالهما من دون أن يقتحما المكتبَ الذي أمضت الآنسةُ أميليا الليل فيه. ثم غادر الاثنان معا.

Twitter: @ketab_n

هكذا تُركت الآنسة أميليا وحيدةً في البلدة. لو علم الناس كيف يمكنهم مساعدتها لفعلوا، إذ الناس في هذه البلدة سبّاقون للعَوْن متى ما وجدوا فرصة. عدةُ نساء جئن مستفسرات بمكانسَ وعرضن أن يكنُسْن الدمار. لكن الآنسة أميليا اكتفت بالنظر إليهن بعينين حولاوين ضائعتين وهزّت رأسها. جاء ماكفيل البدين في اليوم الثالث من أجل شراء أقراص تبغ مضغوط من ماركة كويني فقالت الآنسة أميليا إن السعرَ دولارٌ واحدٌ. ارتفع سعرُ كل شيء في المقهى فجأة ليصبح دولارا. وأيّ نوع من المقاهي ذلك المقهى؟ إضافة إلى ذلك تغيّرت بشكل غريب باعتبارها طبيبة. في كل السنوات الماضية كانت أكثرَ شهرةً من طبيب تشيساو. لم تسخَرْ قطُّ من روح مريض أو تحرمه من الضروريات الحقيقية مثل الشراب والتبغ ونحوهما. قد تحذّر بين الفينة والأخرى مريضا من أن يتناول البطيخَ المقليّ أو طبقا مشابها لم يخطر لأحد أن يشتهيه في المقام الأول. أما الآن فكلّ التطبيب الحكيم قد ولّى زمنُه. أخبرت نصفَ مرضاها أنهم سوف يموتون عاجلا ووصّت بأن يأخذ النصفُ الباقي أدويةً إمّا بعيدة المنال أو موجعة بحيث لم يضعها عاقلٌ في الاعتبار لحظة واحدة.

تركت الآنسة أميليا شعرَها يشعَث، وكان يشيب. استطال وجهها وانكمشت العضلاتُ المتينةُ في جسمها حتى أمست ناحلةً كما تنحل الخادماتُ العجائزُ حين يُصَبن بالجنون. وتلكما العينان الرماديتان— ازداد حَوَلُهما تدريجيا يوما إثر يوم، وكأن كُلا منهما

Twitter: @ketab_n

كانت تسعى في طلب الأخرى لتتبادلا نظرةَ أسًى واعتراف مهجور. لم يعد يستسيغ الناس الاستماع إليها وازداد لسانُها حدّةً فظّيعة.

عندما يأتي أحدٌ على ذكر الأحدب لا تقول إلا هذا: «يا للحسرة. لئن أدركته بيدي لأمزّقن أحشاءه وأرميها إلى القططا» لم تكن الكلمات فظيعة، بل الصوت الذي قيلت به. لقد فقدَ صوتُها حيويّته القديمة، إذ لم يعدْ فيه شيءٌ من رنينِ الانتقام الذي كان يحمله عندما كانت تذكُر «ذلك النسّاج الذي كنت قد تزوّجته» أو أي خصم آخر. انكسر صوتُها، ذبل وصار حزينا مثل صفيرِ أرغنِ الكنيسة الناحب.

لمدة ثلاث سنوات كانت تجلس في الخارج على الدَّرج الأمامي كل ليلة، وحيدةً وواجمةً، تنظر إلى الطريق وتنتظر. لكن الأحدب لم يعدْ أبدا. كانت هناك شائعةٌ تقول إن مارڤن ميسي استخدمه في تسلّق النوافذ من أجل السرقة، وشائعةٌ غيرها تقول إن مارڤن ميسي باعه إلى معرض في سيرك. لكن كلا الشائعتين مصدرهما ميرلي راين. لم يُسمع منه شيءٌ صحيحٌ قط. في السنة الرابعة استأجرت الآنسة أميليا نجّارا من تشيساو وجعلته يغطّي منزلَها بالألواح الخشبية، وهناك، في تلك الغرفِ المغلقةِ ظلّت منذ ذلك الحين.

Twitter: @ketab_n

أجل، البلدة كئيبة. الطريقُ في أماسي أغسطس خالٍ، أبيضُ من الغبار، والسماءُ فوقه صافيةٌ كالزجاج. لا شيء يتحركُ—ما من أصوات أطفال، لا شيء يُسمع غير همهمة عجلة المغزل. يبدو أن أشجار الدراق تنعقف كل صيف أكثرَ والأوراق تستحيل رماديةً باهتةً ولها من السقم هشاشة. يميلُ منزلُ الآنسة أميليا الآنَ إلى اليمين ميلانا مُلاحَظا إلى درجة أن سقوطه كُليًّا ليس إلا مسألة وقت، ويُحاذرُ الناسُ المشيَ قريبا من فنائه. ليس هناك شرابٌ جيدٌ يُشترى في البلدة، وتبعدُ أقربُ مقطرة مسافة ثمانية أميال، كما أن الشرابَ من الرداءة بحيث تنمو على أكبادِ أولئك الذين يشربونه ثآليلُ بحجم حبةِ الفولِ السوداني ويحلمون بعالم باطنيٍّ خطير. الحقّ أنّه لا يوجد ما يمكن القيام به في البلدة إطلاقاً. امشِ حول بركة الطاحونة، قفْ واركلْ عَجُزَ شجرة خاويًا، فكرْ فيما يمكن القيام به باستخدام عجلة العربة القديمة على جانب الطريق قريبا من الكنيسة. تتعفنُ الروحُ بفعلِ السأم. لا ضَيْرَ أن تذهب إلى طريق شلالات فوركس السريع وتستمع إلى العصابةِ المُصَفَّدة.

Twitter: @ketab_n

الهالكون الاثنا عشر

يبعد طريق شلالات فوركس السريع مسافةَ ثلاثة أميالٍ عن البلدة، وهنا كانت العصابة المُصَفَّدة تعمل. الطريق مُمَهَّد من الحصباء، وقد قررت بلديةُ المقاطعة أن ترأبَ الرُّقَعَ الوعرةَ فيه وأن توسّعه في منطقة خطيرة منه. تتألف العصابةُ من اثني عشر رجلا، كلهم يرتدون بدلاتِ السجنِ المخططة بالأسود والأبيض ومُكبَّلون عند الكواحل. يوجد حارسٌ، بسلاحه، استحالت عيناه شَقّين أحمرين بفضل التحديقِ في الوهج. تعمل العصابة طوال النهار، يصل أفرادها محشودين في عربةِ السجنِ بعد انفلاقِ الصُّبح مباشرةً، ويؤخذون إلى السجن من جديدٍ في غسقِ أغسطس الرماديِ. طوال اليوم هناك صوتُ المعاولِ تضربُ في الأرض الصلصالية، وضوءُ الشمس المضطهدة، ورائحةُ العرق. وكل يوم هناك موسيقى. يبدأ صوتٌ واحدٌ كئيبٌ عبارةً، نصفَ مُغَنّاة، وتُشبه سؤالا. وبعد لحظة ينضمّ صوتٌ ثان، وسرعان ما تصبح العصابةُ كلّها تغني. الأصواتُ في الوهج الذهبي كئيبة، الموسيقى مختلطةٌ بشكل معقّد، كالحةٌ وبهيجةٌ في الآن نفسه. تفيضُ الموسيقى حتى ليبدو في الأخير أن الصوتَ لا يصدر عن الرجال الاثني عشر في العصابة وإنما من الأرض نفسها، أو من السماء الفسيحة. إنها الموسيقى التي تجعل القلب يتّسع والمستمع يضعف من النشوة والخوف. ثم بطيئا تغوص الموسيقى حتى ليبقى في النهاية صوتٌ وحيد، ثم نَفَسٌ أجشّ هائل، والشمس، وصوتُ المعاولِ في الصمت.

Twitter: @ketab_n

أيّ نوعٍ من العصابات هذه التي يمكنها أن تُصدر موسيقى؟ مجرّد اثني عشرَ رجلا هالكا، سبعةٌ منهم سُودٌ وخمسةُ فتيان بِيضٌ من هذه المقاطعة. مجرد اثني عشر رجلا هالكا يعملون سويا.

Twitter: @ketab_n

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: MascilianaE@

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كارسن ماكالرز

أنشودة المقهى الحزين

«واحدة من أحسن الروايات التي كتبها أديبٌ أمريكي.»

أيرڤنگهاو

«خيال جريء ... جسارة تكفي لتناول الفظاعة في الطبيعة الإنسانية من دون فقدان الأعصاب أو الوقار الرصين أو الحب. ماكالرز حكاءة لا تضاهى وذات بصيرة فريدة... إنها كاتبة من الطراز الرفيع.»

ڤيكتور سودن پريتشيت

«ينبغي أن تكون «أنشودة المقهى الحزين» في عِداد أحزن القصص في كل اللغات على الإطلاق.»

أوليڤر إيڤانز

««أنشودة المقهى الحزين» قصة المنبوذين حين يقعون في الغرام، لكنها أكثر من ذلك. إنها احتفاءٌ بقوة الحب نفسه ورثاءٌ لفواته.»

ريتشارد كوك

«لقد وجدتُ في أعمالها من القوة ونبل الروح ما افتقدناه في أدبنا المنثور منذ هيرمن ميلڤيل.»

تينيسي ويليامز

«تتمتع ماكالرز بقدرة غيرِ عادية على الملاحظة والتذكر وبموهبة فذة في ترجمة الأحاسيس المتذكَّرة إلى كلمات.»

ديانا تريلينگ

ISBN: 978-9938-833-81-2
9 789938 833812